الباب التاسع

obeikandl.com

obeikandl.com

الباب التاسع

في ذكر مرضه ووفاته وغسله وتكفينه، والصلاة عليه

ومشهده الجليل، وما قيل عن أهل الصلاح فيمن حضره مِنَ الأولياء وغيرهم، ومكان دفنه، وما تُلي عندَ قبره مِنَ الختمات، وما رُؤيَ له مِنَ المنامات، وما أوصى بفعله بعدَ موته، ونبذة مِنْ أحوال بنيه وبناته وأبنائهم، وكذا أحوال زوجاته وسراريه ومَنْ علمته مِنْ خَدَمِهِ، وغير ذلك.

[مرضه]:

أما مرضه رحمه الله، فكان ابتداؤه في ذي القعدة مِنْ سنة اثنين وخمسين وثماني مائة بعد أن بلغني ـ مما لم أستحضره حين إثباته الآن ـ أنه قصَّ على جماعة مجلس الإملاء في ربيع الأول مِنَ السَّنة التي توفي فيها، أنه رأى في المنام بعض الرُّواة، وأظنه أبا مصعب، وأنَّه قدَّمَ إليه مائدة فيها عشرة أرغفة، العاشر منها مكسورٌ منه شيءٌ يسير، فأوَّلَهُ له بعضُ الحاضرين بعشرِ سنين تفاؤُلاً، فما كان إلا دون عشرة أشهر، ومات.

ونحوه أنَّ الكمال المجذُوب حضر إلى منزل شيخنا مرة في يوم جمعة باكِرَ النَّهار، مع أنه لم تَجْرِ عادتُه بمجيئه إلى منزله. نعم، رأيتُه جلس بين يديه مع الجماعة في مجلس الإملاء بالكاملية، وكتب كما تقدم، فلما حضرَ جلس في الدَّركاة بين البابين، وأغلق باب الزَّلاقة، وطرد مَنْ كان هناك مِنَ الخدم ونحوهم، واتَّفق ظهورُ شيخنا لمن ينتظره للقراءة ببابه، وكنَّا ثلاثة: ابن حسَّان وابن قمر وأنا ثالثهما، فصادف الكمال بالباب، فجلس بجانب باب

السِّتارة، والكمال قريبٌ منه، واتفق مجيءُ سبط شيخنا، فوقف قريباً مِنْ جدِّه، ثم طلب الكمال مِنْ شيخنا شيئاً، فأخرج له من جيبه ـ فيما أظنُّ ـ ديناراً، ثم قال له: وأيضاً، فأعطاه آخر، ثم طلب أيضاً، فأعطاه آخر، واستمر هٰكذا إلى أن استوفى، إما سبعة، فيما يغلب على الظنِّ، أو ستةً، وأهابُ أن أجزِمَ بأنَّها مجموعُ ما كان في جيبه، فلما صارت بيده، أدارها في كفِّه، ثم دفعها للسِّبط، فاستمرت معه يسيراً، ثم أخذها منه بعزمٍ وهو يصيح ويقول له: هو لا يسهُلُ عليه أن يعطيها، وأعادها لشيخِنا قائلاً له: خذها وقم عنا، وصار يكرِّرُ ذٰلك حتى تغيَّر لونُ شيخنا مِنْ صنيعه، وقام فدخل وانصرفنا. فلم يلبث رحمه الله تعالى إلاَّ يسيراً بعد ذٰلك جداً، ثم عزل، وأقام يسيراً، ثم مات، فكانت حياتُه بعد هذه الواقعة عددَ القَدْرِ، إمَّا سبعة أو ستة كما تقدم. وبعد هٰذا المجلس صار شيخُنا يذكُر الكمالَ بالجميل، ويقول: كنتُ أعرفه بمصر على خيرٍ يحفظ «التَّنبيه» و«الألفية»، وربما أرسل إليه الكمال بعضَ مَنْ يروم منه شيئاً مِنَ الدُّنيا لوفاء دَيْنِه ونحو ذلك، فيقول شيخنا للشهاب بن يعقوب: صالحْ عنَّا قاصِدَ الشَّيخ. رحمهم الله تعالى وإيانا.

ولمَّا مرض رحمه الله ـ كما أسلفنا ـ في ذي القعدة، حضر مجلسَ الإملاء في حادي عشره، ورجع إلى الحلبيَّة، فأقام عندها إلى أن تعشَّى، ثم رجع إلى منزله، فقدَّموا له العشاء، فما امتنع مِنَ الأكل مراعاةً لخاطر أهله، فثَقُل ذٰلك عليه (بحيث تقيأ)[1] وتغيَّر مزاجُه، وأصبح يومَ الأربعاء ضعيفَ الحركة، فحضر الجماعة للتوجه في خدمته على العادة بجامع طولُون، فما استطاع، واستمر مكتُوماً ولا يعلم به كثير أحدٍ، وهو يطلع إلى المدرسة للصَّلوات والإقراء على العادة، بل حضر مجلسَ الإملاء في يوم الثُّلاثاء خامس عشري الشَّهر المذكور، فأملى مجلساً وهو متوعِّكٌ، ثم اشتدَّ به الوعك وتضرَّر بالكتمان كثيراً، وخشي الأطباءُ أن يناولوه مسهلاً لأجل سنِّه، فأشير بلبنِ الحليب، فتناوله فلانت الطَّبيعة قليلاً، وأدى ذٰلك إلى نشاط يسيرٍ ونوع خِفَّةٍ، وصار مسروراً بذلك، فيقول: خرج جُوَيْزاتٌ وبُنَيْدقاتٌ ونحو ذلك.

(١) ما بين قوسين ساقط من (أ).

ثم عاد الكتمانُ، وتزايد الألمُ بالمعدة، وصار يحسُّ بشيء ثقيل على معدته، بحيث كان يقول: هذه بقايا الغبن مِنْ سنة تسع وأربعين وتوابعها، وينشد قولَ الفرزدق:

قـوارِضُ تـأتـيـنـي ويَـحْـتَـقِـرُونَـهـا وقَدْ يـمـلأ القَـطْـرُ[1] الإنَاءَ فيفـعـمُ

وقال سبطُه: إنه أنشده في مرضه هٰذا:

عـمـارة الـجـسـم نَـفَـسْ وهـدْمُـه إذا احـتَـبَـسْ

ولم يترك رحمه الله جمعة، بل ولا جماعة. نعم، لم يستطع صلاة عيد الأضحى، وكان يوم الثلاثاء بعد أن سمعنا عليه «فضل عشر ذي الحجة» لابن أبي الدنيا (يوم عرفة)[2]، وهو آخر شيءٍ سمعناه، بل سُمِعَ عليه مطلقاً. وصلى الجمعة التي تليه، توجه وهو راكب والناس في خدمته، حتى صلينا معه الجمعة في الصف الأول برواق البسملة مِنْ جامع الحاكم، وطلع بعد فراغه مِنْ باب النَّصْر، فركب وهو بالطيلسان كما مضى، وسأله بعضُ العوامِّ وهو ظاهرٌ مِنَ الجامع الدُّعاءَ، فقال له بعزمٍ: غفر اللَّهُ لَك.

وتوجَّه إلى الحلبية، فاستعطف خاطرها في انقطاعه عنها، وحالَلَها واسترضاها.

وكان رحمه الله قد استشعر بالوفاة، بحيث كان إذا أخبر بالمنامات وشبهها مما يدلُّ على رجاء صحَّته وحصُول بُرئه، يقول: أمَّا أنا، فلا أرَاني إلاَّ في تناقُصٍ، وما أظنُّ الأجلَ إلا قد قرُبَ، ثم ينشد:

ثاءُ الثَّلاثينَ قد أوهت قُوى بَدَني فكيف حاليَ في ثاء الثمانينا

ويقول: اللهُمَّ حرمتني عافِيَتك، فلا تحرمني عفوك. انتهى.

وقد سأل الملكُ الكاملُ الشَّرفَ أبا المكارم محمد بن عبدالله بن

---

(١) في (ب): «القطن».

(٢) ما بين قوسين ساقط من (ب).

الحسن بن عين الدَّولة الصَّفراوي (عن سِنِّه)[1]، فارتجل:

يا سائلي عَنْ قُوى جِسْمي وما فَعَلَتْ ... فيه السُّنُون ألا فاعلمه تبيينا[2]

ثاءُ الثَّلاثين أحسَسْتُ الفُتُورَ[3] بها ... فكيفَ حالِيَ مع ثاء الثَّمانينَا

بل سمعت شيخنا بعدَ وفاة مُستملي مجلسه الزَّين رضوان ـ وكانت في رجب سنة وفاته ـ يقول: هٰذه أمارَةُ الرَّحيل، في محرَّم هٰذه السَّنة توفِّيَ مِن رؤوس المجلِس البرهانُ بن خضر، والشِّهابُ الرِّيشي، وفي صفرها الزَّينُ السَّنَدَبيسي، وفي شوال السَّنة الماضية المحبُّ البكري.

قلت: وكذا مات [مِنْ جماعته في شوال سنة وفاته الشِّهابُ الرَّدادي، وفي رمضانها][4] تغري برُمش الفقيه، ومن غير جماعته مِنَ الأعيان العمادُ إسماعيل بن شرف المقدسي في ربيع الآخر مِنْ سنة وفاته، وأبو الفتح ابن أبي الوفاء في شعبانها، ومن خِيار المباشرين الصَّاحبُ كريمُ الدِّين ابن كاتب المناخاة، وجماعة ليسَ هذا محلَّهم.

ثم إنَّ نحو ما تمثَّل به شيخُنا قول الفُضيل بنُ عياض:

بلغتُ الثَّمانِينَ أو جزتُها ... فماذا أومِّلُ أو أنتَظِرْ

أتَتْ لي ثمانون[5] مِنْ مولدي ... ودُونَ الثَّمانين لي مُغتَبَرْ

عَلَتْني السُّنُونَ فأبلَيْتَني ... فَرَقَّ العِظَامُ وكَلَّ البَصَرْ

وقول القائل:

إنَّ الثَّمانين وبُلِّغتُها ... قَدْ أخوَجَتْ سَمْعي إلى تُرجُمانْ

---

(١) ما بين قوسين ساقط من (ب).

(٢) في (ب): يقيناً، تحريف.

(٣) في (ب): «القبور».

(٤) ما بين حاصرتين لم يرد في (ب).

(٥) في (أ): «ثمانين»، خطأ.

قلتُ: وقد أسندَ الخطيب في ترجمة أبي بكر محمد بن جعفر بن محمد بن فضالة الأدمي القارىء، صاحب الألحان، وأحسن النَّاس صوتاً بالقرآن، وأجهرهم به، مِنْ طريق عبدالله بن إسماعيل بن إبراهيم الإمام، قال: رأيتُ أبا بكر الأدمي في النَّوم بعدَ موته بمُدَيْدَة، فقلت له: ما فعل الله بك؟ فقال: أوقَفَني بين يديه، وقاسيت شدائد وأموراً صعبةً، فقلت له: فتلك الليالي والمواقف والقرآن؟ فقال: ما كان شيءٌ أضَرَّ عليَّ منها، لأنَّها كانت للدنيا. فقلت له: فإلى أيِّ شيءٍ انتهى أمرُك؟ قال: قال لي تعالى: إني آليتُ على نفسي أن لا أعذِّبَ أبناءَ الثَّمانين. انتهى.

وورد حديثٌ فيه بشارة لمن عُمِّرَ ثمانينَ، استوفى طرُقَه صاحبُ التَّرجمة في كتابه «الخصال المكفرة»، وساق عقبها للحُسين بن الضَّحَّاك قوله مِنْ أبيات:

أمَا في ثمانين وفيتُها ... عذيرٌ وإنْ أنا لَمْ أعتَذِرْ
وَقَدْ رَفَعَ الله أقلاَمَهُ ... عَنِ ابنِ ثمانِينَ دونَ البَشَرْ
وإنِّي لِمَنْ أُسَرَا الإله ... في الأرض نَصب صُرُوفِ القَدَرْ
فإن يقضِ لي عملاً صالحاً ... أُثَابُ وإنْ يَقضِ شراً غَفَرْ

وقوله أيضاً:

أصبحتُ في أُسَرَاء الله مُحْتَبَساً ... في الأرضِ تحتَ قضاءِ الله والقدر
إنَّ الثَّمانينَ إذ وفيتُ عِدَّتَها ... لم تُبْقِ باقيةً مِنِّي ولم تَذَر

انتهى.

وكان ابنُ عُيينة يُنشدُ:

سئمتُ تكاليفَ الحياة ومَنْ يَعِشْ ... ثمانينَ عاماً لا أبَا لَكَ يَسْأمِ

ولأبي الصَّلاح ابن عين الدَّولة الصَّفراوي[1]:

(١) في هامش (ط) ـ وأظنه بخط الزبيدي شارح القاموس ـ ما نصه: لعل هذه القطعة =

ثمانُونَ[1] مِنْ عمري تَقَضَّت فما الَّذي ... أُؤمِّلُ مِن بَعدِ الثَّمانينَ مِنْ عُمْرِي
أطايِبُ أيَّامي مَضَيْنَ حميدةً ... سِرَاعاً ولم أشْعُرْ بِهِنَّ وَلَمْ أدْرِ
كأنَّ شَبَابي والمشيبُ يرُوعُه ... دحي ليلةٍ قد راعَها وضَحُ الفَجْرِ

ولبعضهم:

أفْلَتُّ مِنْ سَبْعِ السَّبْعين مُنْهَزِماً ... فَفُتُّهُ وتراخى الحَيْنُ بي حِينَا
وفي الثَّمانين تِنِّينٌ يُشاوِرُني ... من ذا يقاوم تِنِّينَ الثَّمانينا
وقَدْ أتَتْ حَيَّةُ التِّسْعِينَ تَلْسَعُني ... ولستُ أقدِرُ أزْقِي سُمَّ تِسْعِينَا
فأسْألُ الله تأمِيناً ومَغْفِرةً ... ويرحَمُ الله عبداً قال آمِينَا

ولأسامة بن مرشد[2]:

مَعَ الثَّمانين عاثَ الضَّعْفُ في جَسَدِي ... وساءني ضعفُ رِجْلِي واضطرابُ يَدي
إذا كتبتُ فخطِّي خطُّ مضطربٍ ... كخطِّ مُرْتَعِشِ الكَفَّيْنِ مُرْتَعِدِ
فاعْجَبْ لضَعْفِ يدي عَنْ حَمْلِها قَلَماً ... مِنْ بَعْدِ حَطْمِ القنَا في لَبَّةِ الأسَدِ
وإنْ مَشَيْتُ وفي كفِّي العَصَا ثَقُلَتْ ... رِجْلي كأنِّي أخُوضُ الوَحْلَ في الجَلَدِ
فَقُلْ لِمَنْ يَتَمَنَّى طُولَ مُدَّتِهِ ... هٰذي عَواقِبُ طُولِ العُمْرِ والمُدَدِ

قلت: ولم يبلغ الحالُ ـ ولله الحمد ـ بصاحب التَّرجمة هٰذا، وإنَّما أوردتُها مع ما قبلها استطراداً.

= أنشدها الثعالبي في «يتيمة الدهر» للمعز الفاطمي صاحب مصر، لكن أنشد:
ثلاثون من عمري مضين فما الذي ... أؤمل من بعد الثلاثين من عمري
ومن تأمل في البيت الثالث، بل الثاني، عرف أن الصواب «ثلاثون». وأما أبو الصلاح فلا أعرفه، فإن كان ممن أخر عن صاحب «اليتيمة» ـ وهو الغالب على الظن ـ فقد ظهر أن الخطأ في نسبة القطعة إليه محقق.

(١) في (ط): «ثمانين»، خطأ.

(٢) الأبيات في كتاب الاعتبار لأسامة ص ١٨٢، طبع دار الأصالة بالرياض.

وتردَّد الأطباءُ لصاحب الترجمة، ولم يكن يرى استخدام أهل الذمة في ذلك، بل سمعتُه مراراً يقول ـ وأظنه لغيره ـ: أيأتَمِنُ المسلمونُ على أموالهم وأبدانهم أعداءهم؟ انتهى.

وصار هو ينظرُ في «القانون» وشبهَهُ مِنْ كتب الفنِّ، ويتكلَّم مَعْ أهله إذا حضروا عنده بأمتن كلام، حتى إنَّ ابن صَغِير ـ وهو مِنْ أفاضلهم ـ بلغني عنه أنَّه قال: وددت لو كنتُ لازمته في ذلك سنةً.

وكان مِنْ جملة مَنْ حضر إليه: أبو الفضل محمد بن محمد بن أبي القاسم بن محمد البجائي المغربي، الذي كان عاتباً على الزَّمن وأهلِه، وانفرد بالطَّبع الذي قَلَّ مَنْ يشارِكُه فيه، وانكشفَ حالُه قبل مماته، لا سيَّما في أشرفِ بلادِ الله، التي ذَهبَ بعضُ الصَّحابة رضوانُ الله عليهم إلى مضاعفة السَّيئات فيها كالحسنات، كما أخبرني به ثقاتُ أهلها، حتى مَنْ أخذَ عنه، كما بيَّنتُهُ في موضع غير هذا. وكان حضورُه عندَ صاحب التَّرجمة بعد أن تكرَّر على سمعه مِنَ الثَّناء عليه مِنْ بعض طلبته الذي تسلَّط على كتاب الله بما قرَّره له على ما أخبر به أبو الفضل غير واحد ممَّن شافهني مِنْ قاعدة كُلِّيَّة ـ زعمَ ـ ينضبطُ بها المقصودُ، ممَّن عُرِفَ كلامه في السَّخطِ والرِّضا، مبالغة زائدةً في وصفه، ممَّا كنتُ أستحيي مِنْ ذكره بين يديه، كقول القائل في حقِّه: لو اشتغلَ بحفظِ الرِّجال ونحوها مِنْ متعلَّقات الحديث ما كان بعد مُضِيِّ سنةٍ يلحق[1] في ذلك، فما كان إلاَّ أن جلس ودار بينهما الكلام في شيءٍ مِنَ العلاج ونحوه، ظهر له أمرُه، وبيَّنَ ترجمتَه، لِمَنْ يثقُ به بعد مفارقته، ولا يقال: كيف عرف حاله مِنْ جلسة واحدة، لكون مثل ذلك لا يخفى على مثله.

وقد حقق لي أمرَه العلاَّمةُ قاضي المذهب العز الحنبلي بما بسطتُه في مكان غيرِ هٰذا، وكذا العلامة جمال الدين بن السَّابق الحموي، بل قال لي: إنَّه كان غلِطَ فيه في أول الأمر، ثم رجع إلى الصَّواب، وكشف حالَه حتى

---

(١) في (ب): «يلي».

في ديانته بما لم تجرِ عادتي بإثبات مثله، وإنما الحاملُ للإشارة إلى ذلك دَفْعُ مَنْ يتكلَّم بالهوى.

ثم عَظُمَ الكرْبُ واشتد الخطب، وهرع النَّاسُ كبارُهم وصغارُهم، مِنَ الأمراء والقُضاة والعلماء والمباشرين والطَّلبة والصُّلحاءِ أفواجاً أفواجاً لعيادته، واستغاثوا مبتهلين إلى الله تعالى في طلب عافيته.

[من عاد ابن حجر في مرضه]:

وممَّن حضر إليه: الأمير دولات باي، والقاضي وليُّ الدِّين السَّفطي، وهما ممن ناوأه، وسأله الثَّاني ـ بعد أن جلس عند باب المجلس الذي فيه أمُّ أولاد صاحب الترجمة، وحسر عن رأسه حسبما أخبرني به الشَّيخ جلال الدين ابن الأمانة ـ براءة الذِّمَّة، فقال: ممَّاذا؟

ونحوه ما أجابَ به الشيخ مدين، حيث جاءه بعد موت القاياتي شافعاً في وليِّ الدين بن تقي الدين البلقيني ليحصل له الرضا عنه، فقال: أمَّا الظاهر فقد حصل لمجيئكم، وأما الباطن فيحتاج إلى علاج، فسكت الشَّيخ.

وكذا حضرَ إليه الشَّرف يحيى بن العطَّار، وكان منجمعاً عنه، وحصلت بينهما مذاكرةٌ لطيفة، وأظهر شيخُنا بشرى بالاجتماع به على جاري عادته في التودُّد مع مَنْ يفهم منه شيئاً، وأرسل إليه تُحفاً على يد الشَّيخ شمس الدين القِمَني خازن الكتب بالمؤيَّديَّة.

وكذا جاء إليه القاضي كمال الدين بن البارزي، وقاضي القُضاة البدر العنتابي، وكنتُ حاضراً حين مجيئه، فتذاكرا، وسمعته يقول له: قد سمعتَ على العراقيِّ، وأحبُّ الوقُوفَ على مروياته، فقال له شيخنا: لا يُوجَدُ مجموعُهُ في موضع واحد، مِنْ أجل أنه لم يعتنِ بذلك فيما وقفنا عليه، وكذا لم يعتنِ بجمعها ولدُه، بل ولا غيره مِنْ طلبته، لكن أُخرج لكم ترجمته مِنْ «معجم شيوخي»، وفيها الكتب والأجزاء التي قرأتُها، أو سمعتها عليه، وهي تأتي على كثيرٍ مِنْ مروياته، فإذا حصَّلْتُم هذا، يتتبع الباقي.

وممن جاء لعيادته الشيخ مِدين، وأحضر له كتاباً كان في عاريته، وعُدَّ هٰذا مِنْ مكاشفاته.

إلى أن كان يوم الثلاثاء رابع عشري ذي الحجة، حضر عنده قاضي المالكية البدر بن التِّنسي مع الجماعة على العادة للسَّلام عليه، فأطال الجلوس معه، واستأنس به، وبعد أن ظهروا، استدعى بالوضوء، وأخذ يتوضَّأ، فما تمكَّن، ومِنْ يومئذٍ اشتدَّ مرضُه جداً، بحيث صار يصلِّي الفرضَ جالساً، وترك قيامَ اللَّيلِ، وصُرِعَ يوم الأربعاء، ثم تكرَّر ذٰلك منه، وسُمِعَ منه يوم الجمعة عند الأذان لها إجابةُ المؤذِّنِ.

وكانت وفاتُه ليلة السَّبت ثامن عشري ذي الحجة، بعد العشاء بنحو ساعة رمل، بعد أن جلس حولَه سبطُه ومِنْ جماعته الفخرُ بن جَوْشَن، والشيخُ شمسُ الدِّين السُّنباطي، والشهاب الدَّوادار، وقرؤوا عنده سورة يس مرةً، ثم أعيدت إلى قوله تعالى: ﴿سَلَٰمٌ قَوْلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ﴾، ثم مات.

وتولى السُّنباطي المذكورُ تغميضَه، وأخذ ولدُه يومَ السبت في تجهيزه، فغُسل بحضرةِ الشَّيخ زين الدين البُوتيجي، ويقال: إنه لم يخرج منه كثير شيء.

[جنازته]:

وحصل ـ وهو على الدكة وكذا في حال المسير بجنازته ـ غيمٌ، وأرخت السَّماءُ مطراً خفيفاً جداً لا يُبلُّ الثياب شبه الغبوق.

وقد أشار إلى ذلك ابن النقاش في مرثيَّته الآتي ذكرُها، وغيره، وعمل ذلك في بيتين الشِّهابُ المنصوري وغيره كما سيأتي[1].

وكُفِّنَ في إزارٍ في وسطه ساترٌ للعورة شُدَّ بحفاظٍ ولفافتين لجميع بدنه وقميص وعمامة، فهذه خمسة. قال لي سبطه: وثوبٌ آخر، فالله أعلم. وجعلوا على تابوته مُرَقَّعَة الخانقاه الصلاحية.

---

(١) انظر ص ١٢٣٧ من هذا الجزء.

وكانت ساعة عظيمة، وأمراً مهولاً، ووقع النَّوْحُ[1] في سائرِ النَّواحي مِنْ أصناف الخلق، حتَّى مِنْ أهل الذِّمَّة.

واجتمع في جنازته مِنَ الخلق مَنْ لا يحصيهم إلا الله عز وجل، بحيث ما أظن كبير أحد مِنْ سائر النَّاس تخلَّفَ عَنْ شهودها. وقفلت الأسواقُ والدَّكاكين، ويقال: إنَّه حُزِرَ من مشى في جنازته بنحو خمسين ألف إنسان، وعندي أنَّه لا يتهيأ حصرُهم، ولا يُدْرَكُ حدُّهم[2].

وقد احتجتُ للوضوء وأنا تُجاه الظَّاهرية القديمة في أوائل الجنازة، فدخلتها وتوضأتُ بعد دخول الطَّهارة، ثم ظهرتُ، فإذا الناس لم يتكامل اجتيازُهم.

وقد روينا عن أبي عبدالرحمٰن السُّلمي، قال: حضرتُ جنازة أبي الفتح القوَّاس الزَّاهد مع الدارقطني، فلما نظر الدارقطنيُّ إلى ذلك الجَمْعِ الكثير، أقبل علينا، وقال: سمعتُ أبا سهل بن زياد القطان يقول: سمعتُ عبدالله بن أحمد بن حنبل يقول: سمعت أبي يقول: قولوا لأهل البدع: بيننا وبينكم يوم الجنائز. انتهى.

وقد حُزِرَ مَنْ شهد جنازة صاحب هٰذه المقالة الإمام المبجَّل أحمد بن حنبل، فكان عدداً بالغاً، بل قال ابنُ الصَّلاح: إنَّه قرأ بخط البيهقي في رواية ذكرها أنه أسلم يوم مات عشرون ألفاً مِنَ اليهود والنَّصارى والمجوس. قال: وهي في كتاب أبي نعيم، يعني «الحلية»، فقال عشرة آلاف، فالله أعلم.

قلت: وتحدَّث الناسُ كثيراً مِنَ الصُّلحاء وأرباب الأحوال بشهود الخَضِر[3] وغيره جنازته، وسمعت ذلك مِنْ غير واحدٍ منهم.

---

(١) ومعلوم أن هذا الفعل مما نهينا عنه، بدلالة كثير من الأحاديث الواردة في ذلك، وقد أخبر النبي ﷺ أنه من فعل الجاهلية.

(٢) في (ب، ط): «عدُّهم».

(٣) هذا مما لا يصح، وقد كان صاحب الترجمة الحافظ ابن حجر رحمه الله لا يرى حياة الخضر عليه السلام، ويرجح وفاته قبل بعثة النبي ﷺ، وقد ألف في ذلك كتاب =

وفي ظني أنَّه ما بعد جنازة التقي ابن تيمية أحفل منها، وما رأينا أحداً مِنَ الشُّيوخ يذكر أنَّه رأى مثلَها، بل ولا ما يقاربُها، حتى بلغني عن الشيخ شمس الدين النَّشائي أنَّه حضَر جنازة البُلقيني ولم تكن كهذه.

وتولى الأُمراء مقدَّموا الألُوف حمل جنازته. وكان جهد الشخص الشَّديد الذي يتمكَّنُ مِنَ الوصول إلى نعشه، أن يمسَّ النَّعشَ برأس إصبعه.

وساروا وعلى مشهده مِنَ الخفر والسُّكونِ والتُّؤدة والمهابة والجلالة ما لا يعبَّر عنه، إلى أن وصلوا إلى سبيل المُومني، وافترق النَّاسُ سماطين، واجتاز نعشُه مِنْ بينهما، فكانت هيئةً مهولة. وقال بعضُ طلبته حينئذٍ مواجهاً للسَّفطي: قتلُوه قاتلهم الله، وأمن على دعائه.

وتلقَّى السُّلطانُ جنازته ليشهد الصَّلاة عليه، ورام قاضي القُضاة علم الدين البُلقيني الصلاة عليه إماماً، فأخَّره السلطان، وأشار إلى أمير المؤمنين الخليفة العباسي بالتقدُّم، ويقال: إنه قال: هو أمير المؤمنين وأنت أمير المؤمنين، فصلى بالناس عليه. وكذا لما حضر شيخُنا صاحبُ التَّرجمة الصلاة على القاياتي، قدَّم السُّلطانُ أمير المؤمنين.

وتوجهوا بشيخنا إلى المحل الذي عُيِّنَ لدفنه، ومعه أيضاً مِنَ الخلْقِ المشاةُ مَنْ لا يحصيهم إلا الله تعالى، حتى جاوزوا قُبَّة الإمام الشافعي رضي الله عنه، وانتهوا إلى تُربة بني الخرُّوبي المقابلة لجامع الدَّيملي والسَّروتين، فدفنوه هناك بمقصورةٍ صدْرَ التُّربة المذكورة مِنْ جهة يسار القبلة في فُسقيَّة فيها غيرُه، وكرهنا له ذٰلك، وهو فما كان أشدَّ إنكاره ـ رحمه الله ورضي الله عنه ـ لمثل هٰذا، والله يعفو عمن أشار بذٰلك، وزعم أنَّه أوصى به، فإنَّ هٰذا شيءٌ اختلقه التماساً لمرضاة ولده وعياله، والذي وُجِدَ في بعض وصاياه السَّابقة الوصيَّة بدفنه بحوش والده، وهو بتلك النواحي أيضاً، لكن اعتُذِرَ عَنْ ذلك بما لا يسوى سماعُه، ولو وُفِّقَ القائمُ بأعباء هٰذا الأمر

= «الزهر النضر في نبأ الخضر» استقصى أقوال العلماء في هذه المسألة وأدلتهم، ثم قال: والذي تميل إليه النفس من حيث الأدلة القوية خلاف ما يعتقده العوام من استمرار حياته.

لرشده، لكان حيث فوَّتَ على الرَّجُلِ مِقصده أشار بمقبرة الصَّلاحية سعيد السُّعداء، ليتمكَّن أتباعُه مِنْ زيارة قبره كلَّ قليل مِنْ غير مزيدِ كُلفةٍ ولا نصب، ولكن الأمر بيد الله تعالى يفعل ما يشاء. وما أحقَّه بقول القائل:

لم أنْسَ يَوْمَ تَهَادَتْ نعشُه أسَفاً ... أيدي الوَرَى وترامِيها على الكَفَنِ
كزَهْرَةٍ تَتَهَاداها الأكُفُّ فَلا ... يُقيمُ في رَاحَةٍ إلاَّ على ظَعَنِ

وقد شوهد كذلك؛ كان النَّاسُ يتعلَّقُون ليدركوا النَّعش بأيديهم أو بمناديلهم، ثم يمسحون بها وُجُوهَهم، ويقول القائل:

عَجَباً لقبرٍ فيه بَحْرٌ زاخِرٌ ... عَجَباً لبحرٍ لُفَّ في أكفانِ

وما أحسنَ قول القائل:

انْظُرْ إلى جَبَلٍ يَمْشِي الرِّجالُ به ... وانْظُر إلى القبر ما يَحْوي مِنَ الصَّلَفِ
وانْظُر إلى صارِمِ الإسْلامِ مُنْغَمِداً ... وانْظُر إلى دُرَّةِ الإسلام في الصَّدَفِ

ولما انتهوا مِنْ دفنه، أخذوا في القراءة عنده بعد الذِّكر والابتهال في الدُّعاء له ساعة طويلة، وأقاموا على قبره أسبوعاً، تختم في كل يوم وليلة عنده ما شاء الله مِنَ الخَتمات. فبطول النَّهار جماعة مِنْ طلبته يختم كلُّ واحدٍ منهُم القرآن غالباً، ومِنَ العصر يأتي القُرَّاء ويكون ختمهم قُبيل الشمس، فلا يُحصى كم تُلِيَ على قبره مِنَ الختمات. وبلغني أن العلاَّمة الجلال المحلي جمع جماعةَ بيتِه وقرؤوا ختماً، وأهدوا ثوابه في صحيفته.

وقال الوُعَّاظ عند محلِّ دفنه ما عَمِلَ الشُّعراء فيه من المراثي وغير ذلك، وكثر الإنشاد لمرثيَّةِ الشيخ شهاب الدين الحجازي بخصوصها من الوعاظ والعامة، بحيث لم يشتهر غيرها. وأطعم بتُربته مِنَ المآكل وشبهها شيءٌ كثير.

وعند تمام الشَّهر فُرِّقَ على أكثر الطلبة مِنَ الذَّهب والفضة ما يفوقُ الوصف، ما بين عشرين ديناراً للشخص الواحد ـ وهم عددٌ يسير يأتي بيانهم ـ إلى نصفِ دينار.

وصلَّوْا عليه صلاة الغائب بغالب البلاد، وحصل الضَّجيج والبكاءُ والانتحابُ أسفاً على فقده، فمن الأماكن التي صُلِّي عليه بها كما علمتُه: مكة المشرفة، على ما كتبَ به إليَّ صاحبُنا ابنُ فهد الهاشمي محدِّثُها.

وبيتُ المقدس، كما أخبرني به الشيخ شمس الدين ابن[1] الشيخ يوسف الصَّفِّي، وكان هُناك. قال: وتوجَّهْتُ إلى بلد الخليل عليه الصلاة والسلام، فصلوا عليه به في الجمعة القابلة، وكانت ساعةً عظيمة في الموضعين.

وحلب، على ما أخبرني به غيرُ واحد، وما أشكُّ أنَّه فُعِلَ كذلك بدمشق، بل وبغيرها مِنَ البلاد النائية، تقبَّل الله منهم.

وأشيع بعد وفاته إشاعة امتلأت الأقطار والنَّواحي مِنْ ذكرها، أنه تُمثِّل بما أودعه الشَّيخ شهاب الدين الحجازي كما سيأتي في مرثيته مما نُسِبَ للعلاَّمة الزمخشري، وصار غالبُ النَّاس حتَّى العوام والنِّسَاء والصِّبيان يُنشدها، وينتحب، ولم يصحَّ ذلك عندي، فالله أعلم.

[المنامات التي رؤيت له]:

وأما المنامات التي رؤيت له في حياته وبعد موته، فشيءٌ كثير، لا أستطيع الإحاطة به، فمن ذلك: ما قرأتُه بخط برهان الدِّين البقاعي بظاهر مجلَّد من «تذكرة» صاحب الترجمة، فقال، ومنه نقلت حرفاً بحرف: لمَّا كانت سنة أربعين وثماني مائة وقع بعضُ مَنْ يدَّعي العلمَ مِنَ الأروام في واقعٍ بَشِعٍ في مجلس الحديث عندَ السُّلطان الملك الأشرف بقلعة الجبل بالقاهرة في رمضان، فادَّعى عليه عندَ شيخنا قاضي القضاة شيخ الإسلام، حافظ العصر، إمام أهل الدهر، المتفرِّد منذ أزمان بالذَّبِّ عن دين الإسلام، والمناضَلةِ عن سُنَّةِ سيد الأنام، عليه أفضل الصلاة والسلام، أبي الفضل شهاب الدين أحمد بن

---

(١) «بن» ساقطة من (أ)، وهو محمد بن يوسف بن أحمد. مترجم في الضوء اللامع ٨٩/١٠ ـ ٩٠.

علي بن حجر الشافعي، صاحب هٰذه «التذكرة»، أطال الله بقاءه، لرفع الدين بقمع المعتدين، في قصة مطوَّلة، تعصب فيها مع الرُّومي أبناءُ جنسِه وبعضُ الأتراك، بواسطة ميلهم إليه لأجل اللِّسان والمذهب، وغير ذلك على العادة، فشرع شخصٌ مِنَ الأتراك يذكر قاضي القضاة المشار إليه بما لا يليقُ بمقامه، فقال له آخرُ منهم: لا تفعل؛ فإنِّي رأيتُ له مناماً عجباً، وحكى له المنامَ. فاجتمعت بذٰلك الرائي في يوم الثلاثاء سادس عشري الشهر مِنَ السَّنة، فحدثنا من لفظه، وهو طقتمر بن عبدالله النَّاصري، قال:

لما توجَّه السُّلطان الملك الأشرف سنة ست وثلاثين وثماني مائة إلى آمد، فوصلنا إلى البيرة على شاطىء الفُرات، رأيت في المنام ليلة ست وعشرين مِنْ رمضان تلك السَّنة كأنِّي دخلتُ مسجداً صغيراً، وفيه شيءٌ كأنَّه قبرٌ محجَّرٌ عليه بخَشَبٍ، وفي ذلك الخشب طاقٌ، وإلى جانب ذلك التَّحجيرِ نعش خشبٍ أبيض بأربعِ قوائم، وعلى النَّعش شخصٌ ممدود، عليه ثيابٌ بيضٌ شديدةُ البياض جداً، بحيث إنَّها لا تُشابِهُ ثيابَ أهل الدُّنيا، كأنها أكفانٌ، وليس مِنْ جسده شيءٌ يُرَى، وإلى جانبه أشخاصٌ ألوانُهم خُضْرٌ. وكان قاضي القُضاة الشَّافعي ابن حجر في محراب ذٰلك المسجد يصلِّي إماماً ووراءه السُّلطان مِنْ جهة يمينه وقاضي القضاة البساطي المالكي مِنْ جهة يساره يصلِّيان مأمومَيْن، فأدركتُ معهم بعضَ الصَّلاة، ولم أعلم أيَّ صلاةٍ هي، فلمَّا سلمتُ قمت، فوضع بعض أولئك الأشخاص أيديهم على كتفي، وقالوا لي: أما تعرفُ هٰذا؟ وأشاروا إلى ذٰلك الذي على النعش، فقلت: لا، فقالوا: هٰذا رسولُ الله ﷺ واستدار القاضي الشافعي، فدعا ثم قام القاضي المالكي، فجاء إلى النبي ﷺ، فسلم عليه ومدَّ يدَه إلى صدر النبي ﷺ ففرَّج بعضَ الأكفان يسيراً، وأخذ مِنْ هناك ياسميناً قدر ما وسعه كفُّه، ثم تأخَّر، وشرع يقرِّبه إلى أنفه ويشُمُّه، ثم يمدُّ يده، ثم يردُّها إلى أنفه ويشم، وتناثر مِنْ يده خمسُ زهرات أو ستٌّ، ثم قام الشَّافعيُّ، فجاء فسَلَّم على النَّبيِّ ﷺ، وقبَّل صدرَه، وشرعا يتكالمان بكلام لم أسمع أحسنَ منه ولا ألذَّ، ولم أحفظ منه شيئاً، واستمر على ذٰلك زماناً طويلاً، لعلَّه بمقدار ما يطبخُ الإنسانُ لحماً ويُنْضِجُه، ثم أدخل يدَه الواحدة تحت كتف النبيِّ ﷺ

والأخرى تحت وسطه، فأدخله إلى ذٰلك المكان المحجَّر مِنْ تلك الطاق مِنْ جهة رجلي النَّبِيِّ ﷺ، والمكالمة مع ذلك بينهما مستمرَّة، حتى انتبهتُ وقت التَّسبيح وهما على ذٰلك. انتهى.

وقد أسلفتُ في الباب الرابع أنَّه رُؤيَ النَّبيُّ ﷺ في مجلس إملائه[1].

وكذا رُؤيَ ﷺ في مجلس أسماعه؛ فمن ذلك: أنَّ أمَّ محمد فاطمة ابنة محمد بن محمد زوج الحاج محمد النجار، عرف بالعاقل، كانت جالسةً بالإيوان الجنُوبي مِنَ المدرسة المنكوتمرية للسّماع على صاحب الترجمة في «المعجم الأوسط» للطبراني، فحصلت لها في حالة السَّماع إغفاءة، فرأت عن يمين الكرسيِّ الذي كان يجلس عليه القارىء حلقةً لطيفةً، فيها شخصٌ مرتدي بكساءٍ أو غيره أبيض لامع البياض، وقد سطع نور الرجل[2] حتى غلب على نورُ الشمعة[3]. قالت: فتطاولتُ لأنظره، وقلت: ما هٰذا؟ فقيل: أما تعلمين؟! هٰذا رسول الله ﷺ، جاء يحضرُ حديثَه. قالت: فأردتُ أن أضجَّ بالصَّلاة عليه، وإذا صياحُ السَّامعين قد ارتفع بالصَّلاة عليه والسَّلام، فانتبهتُ على ضجَّتهم: «صلى الله عليه وسلم»، وحدَّثتْ بهذه الرؤية في ليلة الإثنين غُرَّة رجب سنة ثمان وثلاثين وثمانمائة، وكتبها عنها صاحبُنا النَّجم ابن فهد الهاشمي وغيره مِنْ أصحابنا، وممَّن سمعها الشمس السُّنباطي.

وبلغني عن بعض المنسُوبين إلى الخير أنَّه في السَّنة التي ماتَ فيها صاحبُ التَّرجمة كان بالحجاز، وأنَّه بعد الزِّيارة ـ وكان ذلك قُبيل موت صاحب التَّرجمة بأيام ـ رأى في منامه كأنَّه في المدينة النبوية، وباب الحجرة الشَّريفة مغلوقٌ، والنَّاس قيام ينتظرون فتحَه، وقد ازدحموا، وطال وقوفهم

---

(١) مسألة رؤية النبي ﷺ بعد وفاته مما انتشر بين المتصوفة، ولا يصح ذلك، فما أُثِرَ عن الصحابة رضوان الله عليهم، وهم كانوا أشد شوقاً إلى رؤيته ﷺ، أنهم رأوه أو أنه عليه السلام زارهم أو أتاهم في مجالسهم، والعجب من المصنف رحمه الله كيف يأتي بهذه الحكايات التي لا تصح ولا تتفق مع العقيدة الصحيحة.

(٢) في (ب، ط): «سطع نوره».

(٣) في (أ): «الشمس».

وهم كذٰلك، وأنَّه قيل لهم: لا يفتحُه إلا ابن حجر. قال فما لبثنا أن جاء المشارُ إليه، ففتح لهم فدخلوا وزاروا.

وأخبر شخص أنه رأى كأنَّ النبيَّ ﷺ بالمدرسة المنكوتمرية وهو وصاحب الترجمة يتحدثان، وخلفهما الرأي وجامعُه، ويليهما جماعةٌ كثيرون، وكأنهم في انتظار صلاة العصر (يوم الجمعة)[1]، فقام صاحبُ التَّرجمة إليهما، وأمر جامعَه بالصَّلاة للقوم إماماً، ورجع إلى مكانه.

وحكى الفاضل الأمير تغري برمش الفقيه أنَّه رأى في ليلة النِّصف مِنْ ربيع الآخر سنة سبع وأربعين وثماني مائة كأنه في جامع كبير أو نحوه، وجماعة مُطَيْلَسُون أكثر مِنْ مائة هناك، وكأنهم حضروا لدرسٍ أو إملاءٍ، وثَمَّ شيخٌ كبير متصدِّرٌ في القبلة وهو يُملي عليهم الحديث، وأنَّه جَلَسَ بينهم، وصار يُباحث الشَّيخَ في الحديث ومتعلقاته، وأنَّ الجماعة جعلوا يُشيرون إليه بالسُّكوت، وأنَّه سأل ممَّن بجانبه عن هٰذا الشيخ المُملي، فقال: هو الشَّيخ الإمام أبو بكر الإسماعيلي الحافظ الفقيه صاحب «المستخرج»، وأنَّه لمَّا علم ذٰلك، استحيى منه، فقال لهم الشيخ: دعوه يتكلَّم، فإنه تلميذ أو من تلاميذ ابن حجر.

وبلغني عن بعض الصَّالحين أنَّه رأى كأنَّه بالموقف، ورام دخُول الجنَّة، فقيل له: حتى يدخُلَ الشَّيخُ شهابُ الدِّين ابن حجر.

وأخبرني البدرُ حُسين الأزهري أنه رآه في المنام وبين يديه جفْنَةٌ كبيرة ممتلئة لبناً، والنَّاسُ يجيئون فيشربون منها وهي على حالها لا تنقُص شيئاً.

وبلغني عن الشَّمس الدَّميري ـ أحدِ الموقِّعين ـ أنَّه رأى ليلة وفاةِ صاحب التَّرجمة أنَّ البحر قد نشف، ولم يبق منه إلا مقدار مجراةٍ فيها ماء يسيرٌ، بحيث إنَّه توضأ منه، فصار يصعد معه الرمل لقلَّته. قال: فلمَّا أصبحتُ، سمعت بموت صاحبِ التَّرجمة.

وبلغني عن البرهان التَّرقِّي ـ أحد الموقعين بالدَّست ـ أنَّ زوجته استيقظت صبيحةَ اللَّيلة التي تُوفي فيها صاحبُ التَّرجمة، ولم تكن علمت

---

(١) ما بين قوسين ساقط من (ب).

بموته وهي مرعوبة، وقالت: سمعتُ قائلاً يقولُ: الصَّلاةُ على شيخٍ مِنْ آل بيت النبوة.

ومنه ما بلغني عن الشيخ يحيى العجيسي المغربي نزيل النَّاصرية أنه سمع بعد موته في اليقظة هاتفاً يقول: بعد أحمد وسعد ما يضحك أو يفرح أحد.

وكذا حكى البدرُ حسن الطنتدائي الضَّرير أنَّ شخصاً أخبره في سنة موت صاحب الترجمة أنَّه رأى في منامه كأن اثنين واقفين عند بابي زُوَيْلَة، وأحدهما يقول للآخر: أين تريد؟ فقال: أريد خَسْفَ هٰذه البلدة. فقال: ما دامَ هذا ـ وأشار إلى شيخ الإسلام ـ وكان جالساً بإيوان هناك ومعه آخر. قال: وفي الظَّنِّ أنَّه أشار إلى الآخر أيضاً ـ لم يَضُرَّها شيءٌ. قال البدر: فحكيتُه لصاحب التَّرجمة فتبسَّم، ثم حكيتُه للظَّاهر جُقمُق، فقال: نفعنا الله ببركته.

وتوارد الأخبار عن غير واحد ممَّن ناوأ صاحبَ التَّرجمة سرَّاً أو جهراً ممَّن مات في حياته أو بعده، أنَّهم في عدمٍ راحةٍ مِنْ أجله انتقاماً مِنْ ربِّ العزَّة المنصِف المظلوم ممَّن ظلمه، أحببتُ الإضرابَ عن تفصيل ذلك.

ومنه ممَّا أخبرني به الشيخ عزالدين السُّنباطي، نفع الله به، قال: رأيتُ كأني بين يدي صاحب التَّرجمة أنا والقاضي ولي الدين ابن تقي الدين البلقيني، وكان صاحبُ التَّرجمة دفعَ لوليِّ الدين المذكور مِنَ القصب الأبيض قلماً بغير برايةٍ، وقال له: قُل لصاحبك ـ وسمَّى الشَّرف يحيى ابن العطار ـ: قد تقدَّم الخصمُ والمدَّعى عليه في الطَّلب، والحاكم لا يحتاجُ إلى بيِّنةٍ. قال: فلم يلبث إلا دُون شهرٍ ومات الشَّرفُ المذكور.

قلت: ونحو هذا قول القاضي بكار لأحمد بن طولون عن نفسه وقد ظلمه: شيخُ فانٍ وعليل مُدْنَفٌ، والملتقى قريبٌ، والله القاضي. انتهى.

وكذا تواترت المناماتُ عنه نفسه، أنَّه في رفعَةٍ إلى الغاية، حتى إنَّ فقيه الشَّافعية الشرف المناوي حكى أنَّه رأى في المنام غيرَ واحدٍ ممَّن وليَ القضاء وليس فيهم أحسنَ رؤيةً منه، قال: وما هٰذا إلا ببركة السُّنَّة النَّبوية.

وبلغني عن بعض الأعيان المعتبرين ممَّن أخذتُ عنه أنَّه رأى عَقِبَ وفاته كُلاً مِنَ الإمام الأعظم محمد بن إدريس الشافعي والليث بن سعد الفهمي أعاد الله علينا مِنْ بركاتهما، وهما في همَّةٍ، وأنَّه سألهما أو أحدهما أو واحداً ممَّن حضر عن سببِ ذلك، فأجيب بالاهتمام بضيافة ابن حجر رحمة الله عليهم أجمعين.

وأخبرني العلاَّمةُ الزَّين قاسم الحنفي أنَّه رآه بعد موته، وسأله عن حاله، فقال: بشَّرني بشَّرني بشَّرني، وكررها، ومدَّ يده. قال: فقلتُ له: طيِّب طيِّب، أو كما قال في منام طويل.

ورأيتُ أنا في ربيع الأول سنة ثلاث وسبعين قاضي القُضاة وليَّ الدِّين السُّنباطي المالكي وهو راكب بغلةً ولا وجع بعينيه، فنزل وسلَّم عليَّ، فقلت له: كيف حالُ شيخنا، وأشرت إلى صاحب الترجمة؟ فقال: بخير، واستيقظت وكنت أضمرتُ أشياء كثيرة أسأله عنها، فما تيسَّر.

وأخبرني الشيخ برهان الدين ابن سابق نزيل المنكوتمرية وإمامها أنه رأى وهو ببيت المقدس صاحب الترجمة في المنام وعليه حُلَّةٌ بيضاءُ حرير، بطائنها مِنْ ذهبٍ يلمع، وعلى رأسه عمامة بيضاءُ، في هيئة لم يُرَ أبهجَ منه فيها، وأنه ناوله شيئاً، وأمره بالسَّلام على أهل بيته.

ولو أردت تتبُّع ذلك، لجاء في كراريس، لكن في هٰذه الإشارة كفايةٌ، والله تعالى يحشرُنا معه في زُمرة المصطفى ﷺ، ويزيدُنا بمحبته والانتساب لجنابه في الدَّارين شرفاً، إنَّه قريب مجيب.

ومما يلتحق بذٰلك أنَّ أبا البركات محمد بن إبراهيم العسقلاني والد الزَّين أبي بكر الخانكي رأى قُبيل موت صاحب الترجمة بيسير في اليقظة الشيخ عمر [بن الشيخ علي][1] الزَّيني. وكان مِنْ صُلحاء تلك النَّاحية. وهو في بئر ممتلئة طيناً وقد تضمَّخ منه، فسأله: لأيِّ سبب [عملت ذٰلك؟ فقال: سببُه موتُ ابن حجر. قال: فلم يلبث أن مات بعد أن][2] توجه أبو البركات

(١)(٢) ما بين حاصرتين ساقط من (ب).

المذكور إلى الشمس الشطنوفي الماضي عند ذكر محنة صاحب الترجمة، وأعلمه بذلك وحذَّره مِنْ تغيُّر خاطر شيخ الإسلام عليه، وأنه ينبغي له تدارُكُ ذٰلك قبل الوفاة بالتَّوجُّه إليه والاعتذار والاستغفار، وأنَّه فعل ذٰلك رحمه الله ونفعنا ببركته.

ولو أردت استيعابَ المنامات المتعلِّقة بصاحب الترجمة ـ خصوصاً قُبيل وفاته ـ لطال، مع كونه كان يتوقَّفُ في صحَّةِ كثيرٍ منها. وقد رأيته ضَبَطَ بعضاً مما رآه هو مِنَ المنامات رحمة الله عليه.

[وصيته]:

وأما وصيته، فله عدَّةُ وصايا، اعتمدوا الأخيرة منها. وقد كتب لي سبطُه نسختها، ونصُّها:

يقول راجي رحمة ربه جلَّ وعز، كاتب هٰذه الأسطر، أحمد بن علي بن حجر: إنَّ هٰذه الوصية صدرت عنِّي امتثالاً لأمر خيرة الله تعالى مِنْ خلقه، محمَّدٍ ﷺ، أنَّني أوصيتُ بثلث ما تحتَ يدي مِنْ مالِ الله سبحانه لمن يُذكر فيه مِنْ معيَّن ومُبْهم، وأن يباشر تفرقة ذلك ممن بيديه أخي في الله تعالى القاضي ناظر الجيوش المنصورة محبُّ الدِّين، رزقه الله تعالى العفو والعافية في الدنيا والآخرة، كذلك مع ولدي محمد، فمن ذٰلك ما هو في ذمتي لامرأتي أُنس خاتون ابنة القاضي ناظر الجيوش كريم الدين بن[1] عبدالعزيز رحمة الله تعالى عليه، بقية قيمة[2] كساوي ثلاثمائة دينار ذهباً أشرفياً وظاهرياً، وما هو تحت يدي بقيَّةُ وصية ابن الدَّاراني تقدير خمسين ديناراً، تُدفع للمولى زين الدين عبدالغني القِمَني، يصرفها مصرفها، ومما[3] هو في ذِمَّتي ممَّا يُصْرَفُ مصرِفَ الزَّكاة المفروضة مائة دينار.

وأنَّ تحت يدي على سبيل الوديعة لبلقيس بنت المرحوم شمس

---

(١) في (أ): «أبو»، تحريف.

(٢) «قيمة» ساقطة من (ط).

(٣) في (ب، ط): «وما».

الكَمَاخِي، وهي زوج فخر الدين القاياتي، مِنَ الذَّهب الأفلوري مائتي دينار وتسعة وثمانين ديناراً تنقص عن الثلاثمائة أحد عشر ديناراً.

وما هو في مصرف الوصية لفخر الدين سليمان ابن المرحوم سراج الدين الخروبي خمسُون ديناراً، ولولد أخيه أبي الخير ابن بدر الدين ابن سراج الدين ثلاثون ديناراً، ولولدَيْ أخيه الآخر نور الدين علي ابن عزالدين ابن سراج الدين، وأخيه نظير ذلك، وما هو لولدَيْ شرف الدين ابن سراج الدين، الموجودين الآن بالسَّوية بينهما خمسون ديناراً، ولبنت آمنة بنت سراج الدين من ابن مشرِّف عشرون ديناراً، ولفاطمة بنت نور الدين علي بن أحمد بن يسير[1] [خمسون ديناراً ولمحمد بن شرف الدين محمد بن أحمد بن يسير][2] ولأخيه أربعون ديناراً بالسوية بينهما. ولخاص بنت ناصرالدين محمد بن حجر زوج ابن مرزوق ولولدها جمال الدين بالسوية بينهما أربعون ديناراً.

وأن يخرج من الثلث مائة دينار يفرِّقها القاضي محب الدين المشار إليه أعلاه على من يختار مِنْ معارفه بحسب ما يقتضيه رأيه في ذلك.

وقد أوصيتُ لكلٍّ مِنْ طلبة الحديث النَّبويِّ المتحقِّقين[3] بطلبه والاشتغال به أكثر مِنَ الاشتغال بغيره مِن سائر العلوم الدِّينيَّة ممَّن شهد لهم بذلك جماعة أهل العلم بالحديث، وهم: القاضي نور الدِّين ابن سالم، وبرهان الدِّين البقاعي، وتقي الدين القلقشندي، ونجم الدِّين عمر بن فهد المكي، وقطب الدين الخَيضري، وشمس الدين بن قمر إمام المدرسة الرُّكنية بَيبرس، ومحمد بن عبدالرحمٰن السَّخاوي، وفخر الدين عُثمان الدِّيمي، وزين الدين قاسم بن قطلوبغا الحنفي، بمائتي دينار، تقسم بينهم بالسَّويَّة، ولكلٍّ مَنْ كان يواظبُ مجلس الإملاء بالسوية بينهم مائة دينار،

---

(١) في (ب): «بشير» ن. وهو تحريف. وترجم المصنف لفاطمة هذه في الضوء اللامع ٩٦/١٢، فقال: ابنة أبي القاسم البالسي المصري، ويعرف بابن اليسير ـ بمهملة ـ ككبير.

(٢) ما بين حاصرتين ساقط من (ب).

(٣) في (أ): «المحقين».

ولكل من كان يتعاهد ذلك أحياناً وأحياناً منهم مائة دينار بينهم بالسَّوية، يقدَّمُ الأحوجُ فالأحوج.

ولكل مَنْ سُجِنَ على دَيْنٍ شرعيٍّ وشهد أهل سوقِه أنَّه عَجَزَ عَنْ وفاء ما سُجِنَ لأجله مِنْ غير إنفاق في معصيةٍ مائتي دينار على المحاصَصة بينهم.

ولزين الدين القمني عشرون ديناراً، ولعمر الإسكندراني عشرة دنانير، والشهاب الداودار عشرة دنانير، ولولَدَيْ ولَدِي محمد أربعمائة دينار بالسَّوية بينهما، ولسِبطي يوسف ثلاثمائة دينار، يشتري بها مِنْ كتبي ما يختار، ولحَمْل مستولدته منه مائة دينار بالشَّرح، خارجاً عما كنتُ ملكتُه مِنْ مصنَّفاتي التي بخطِّي في حال صحَّتي، ليَقِفَه على طلبة العلم الشَّريف مِنْ أهل الحديث النبوي، ويكون مقرُّ ذٰلك تحت يده في طُول حياته، ثمَّ مِنْ بعده يستقرُّ ذٰلك في المدرسة المحمودية بخط الموازنيِّين. ومن جملته الأجزاء الحديثيَّة النَّثرية، المجلَّداتُ منها والأجزاء النثرية، وفيها جملةٌ كثيرة مِنْ أجزاء المحمودية مِنْ أوقاف المحمودية، وليعجل بإفرادها وتحويلها إلى المدرسة المحمودية.

وجميع ما أقررت به يخرُج من رأس المال، وجميع ما أوصيت به يخرج مِنْ ثمن الفلفل الذي بالإسكندرية والذي بمصر، فالأول عشرون حملاً، والثاني خمسة وثلاثون حملاً، وإن كان لا يوفي ذٰلك، فليكمل مِنْ سائر التعلُّقات.

وأوصيت للمصونة فرح خاتون أختِ امرأتي شقيقتها بمائة دينار في مقابل أُجرة حِصَّتها مِنَ القاعة سكني.

وأقررت بأنِّي لا أستحقُّ في قاعة خالي صلاح الدين الزِّفتاوي الكائنة بمصر مقابل المقياس شيئاً، بعد أن وَضَح لي أن الاستحقاق لربع ذٰلك بعد والدتي قبلي انتقَلَ إلى غيري بطريقٍ معتبرٍ شرعيٍّ، وأنَّ الذي تحصَّلَ في طول المدَّة صُرِفَ في ترميم المكان المذكور، إلا قدر سنتين وأزيد من ذلك

في ذمَّة تاج الدين ابن حِتِّي[1] التاجر، المذكور، وأن تحت يدي مسطوراً شرعياً لورثة المرحوم جلال الدين محمد[2] ولد[3] المرحوم نورالدين علي الطَّنْبَذِي في ذمَّة شهاب الدين أحمد البرماوي بقية معاملة بينه وبين تاج الدين ابن حِتِّي، وأنه كان يُبدي بمقتضى مسطور شرعيٍّ في ذمَّة المقرِّ الكمالي كاتب السِّرِّ الشريف ألف دينار، وتسلمَ المسطورَ المذكور لما انفصلتُ مِنْ وظيفةِ القضاء في أول سنة إحدى وخمسين أمينُ الحكم العزيز[4] إذ ذاك، بمقتضى إشهاد عليه، وهو القاضي ولي الدين الأسيوطي، وتسلم منِّي أيضاً مسطورَ المعاملة بين ولَدَي الطَّنبَذِي جلال الدين وبين تاج الدين [ابن حِتِّي المتضمن الرهن الزَّركش على ما وقع البيع فيه وبرئت ذمة ابن][5] حتِّي منه إلاَّ قدر معيّن، بشهادة زين الدين القمني.

وأن فخرالدين بن ذُؤيب تسلَّم مني ألفَ دينار ذهباً، منها خمسمائة دينار على أن يشتري بها[6] مِنْ أصناف التِّجارة بالإسكندرية، فيُسْأل عمَّا فعل فيها، والقولُ قولُه، وللوارِثِ تحليفُه. وأنَّ المسطورَ المكتتَبَ عليه أنَّ الذي تسلَّم مِنِّي مِنَ الفلوس المضرُوبة وغيرها ممَّا يشهدُ بها[7] المسطور المذكور، وذكر أنَّه اشترى به الكودة ما ذكر، أنَّه خَزَنَهُ بالمخزن المنسُوب إليَّ بفندق الكارم، لم يقع بيني وبينه فيه حسابٌ ولا مفاصَلَةٌ، وعليه الخروجُ مِنْ عهدته، فإنِّي ما أمضيتُ ذلك، وعليه خلاصُ نفسِه مِنْ تَبِعَتِه. وكذا عليه خروجُه مِنْ تَبِعَةِ السَّفرة

---

(١) ضبطه المصنف في الضوء اللامع ٢٤٣/١١، فقال: بكسر ثم فوقانية مشددة مكسورة، ثم قال: أحد التجار، ذكر في وصية شيخنا، وكان حياً في سنة خمس وخمسين.

(٢) «محمد» لم ترد في (ب).

(٣) في (أ): «والد»، خطأ، فقد ذكره المصنف فيمن نسبته الطنبذي من الضوء اللامع ٢١٣/١١، فقال: نورالدين علي ابن التاجر الشهير وابنه الجلال محمد، توفي قبل شيخنا، وله ذكر في وصيته.

(٤) «العزيز» لم ترد في (ب، ط).

(٥) ما بين حاصرتين ساقط من (ب).

(٦) في (ب): «يشتري لها بها»، وفي (ح، ط): «يشتري لي بها».

(٧) في (ب، ط): «به».

المجهَّزة إلى الإسكندرية على سبيل الشركة بيني وبينه، فإنه لم يخلُص مِنْ تبعتها، ولا تحرَّر بيني وبينَهُ في ذٰلك حسابٌ.

هذا ما كتبه إلي السِّبْطُ، ونفَّذَ ولدُه وباقي الورثة غالبَ ذلك. وأمَّا الكتبُ، فما وفَوْا بقصده، حتى ولا في كتب الأوقاف التي كانت تحت يده والأجزاء الحديثية، وتفرق كلُّ ذلك والكثير منه، لا سيما مصنَّفات الغير التي بخطِّه، حمل إلى الجمالي ناظر الخواصِّ صفواً عفواً من غير مقابل في ذلك، وكان الابتداء فيه بواسطة السِّبط، وتعطل الانتفاعُ به، بل وبسائرها إلاَّ ما كان بُيِّضَ منها في حياته، وكذا ما بيَّضتُه بعد موته، وكانت في ذلك حركات وقلاقل واضطراب شديد، لا أطيل بإيرادها، والأمر بيد الله يفعل ما يشاء.

[زوجاته وبنوه وذريته]

وأما من علمته من زوجاته وبنيه وذريته:

[زوجته أنس خاتون]:

فأوَّل زوجاته: شيخَتُنا الرئيسة الأصيلة أُنْس[1] ابنةُ القاضي ناظر الجيش ـ كان ـ كريم الدين عبدالكريم بن أحمد بن عبدالعزيز بن عبدالكريم بن أبي طالب بن (علي بن)[2] سيدهم اللخمي النستراوي الأصل المصري.

وأمُّها ماتت في المحرم سنة إحدى وعشرين، وهي سارة بنت ناصرالدين محمد بن أنس بنت منكوتمر نائب السَّلطنة، المتوفَّى مُتاخم القرن الثامن، وهو صاحب المدرسة والقاعة المتجاورتين.

كان مولد أُنْس تقريباً في سنة ثمانين وسبعمائة، وتزوَّجها شيخُنا

---

(١) مترجمة في الضوء اللامع ١٠/١٢ ـ ١١، وقال المصنف: وقد أطلت ترجمتها في الجواهر.

(٢) ما بين قوسين ساقط من (أ).

بإشارة وصِيِّه العلاَّمة ابن القطَّان في شعبان سنة ثمان وتسعين وسبعمائة، وحصل لها بواسطة ذلك خيرٌ كثير، وهي - وإن كانت مِنْ بيت رئاسة وحشمة، ولوالدها سماعٌ مِنَ الجمال ابن نباتة وابن البُوري وغيرهما، وسمع منه صاحبُ التَّرجمة قليلاً، وكذا كان عمُّه البدر حسن بن عبدالعزيز ممَّن سمع على الحجَّار وعبدالرحمٰن بن مخلوف بن جماعة وآخرين، وكتب عنه الحُفَّاظُ - لكنَّه لم يعتن بها بالنِّسبة إلى السَّماع والإجازة أحدٌ مِنْ أقاربها، فأسمعها زوجُها مِنْ شيخه حافظ العصر العراقي، حيث جاء إلى منزله لوداعه عند توجُّهه لبعض سفراته «الحديث المسلسل بالأولية»، وكذا أسمعها إياه مِنْ لفظ الشَّرف ابن الكُويك في يوم ختمه «صحيح مسلم»، وأجاز لها باستدعاءٍ شاميٍّ مؤرَّخ في ذي القعدة سنة ثمان وتسعين جماعةٌ؛ منهم: أبو الخير ابن[1] الحافظ العلائي، وأبو هريرة ابن الحافظ الذَّهبي، وباستدعاءٍ بمنى، مؤرَّخ بصفر سنة ثمان مائة، جماعةٌ، وبآخر بمنى أيضاً مؤرَّخ بربيع الآخر مِنَ السَّنة شخصٌ واحدٌ، وبآخر مع ابنتها زين خاتون في سنة اثنتين وثمان مائة غالبُ مَنْ لقيه زوجُها في رحلته الشاميَّة، وبآخر مع ابنتَيْها زين خاتون وفرحة، مؤرَّخ بربيع الأول سنة سبع وثمان مائة، جماعةٌ مِنَ الشاميِّين أيضاً، إلى غير ذلك مِنَ الاستدعاءات المتأخِّرة.

واستولدها صاحبُ التَّرجمة عدَّة أولاد، زين خاتون وفرحة السَّابقُ ذكرهما، وغالية، ورابعة، وفاطمة. ولم تأتِ منه بذكرٍ قطُّ. نعم، كانت تجيءُ بين كل بطنين بسقطٍ ذكراً.

[ابنته زين خاتون]:

فأما أولتهن[2]، وهي بكرُ أولاده، فمولدها في ثاني عشر ربيع الآخر سنة اثنتين وثماني مائة، واعتنى بها أبوها، فاستجاز لها في السَّنة المذكورة

---

(١) «ابن» ساقطة من (أ).

(٢) وهي زين خاتون، ترجمها المصنف في الضوء اللامع ٥١/١٢.

فما بعدها خلقاً[1]، وأسمعها على شيخه العراقي والهيثمي، وأحضرها على ابن خطيب داريَّا في الثالثة الجزء الثَّالثَ مِنْ أول «حديث المخلص».

وتزوجها الأمير شاهين العلائي قطلوبغا الكركي، الذي صار داوداراً صغيراً عند المؤيَّد، ثم بطل إلى أن مات في ذي القعدة سنة ستين وثماني مائة بدمشق كما قرأته بخط ولده، وقال: إنه قرأ القرآن وصلى به، وكتب بخطه «الشفاء» و«الموطأ» وغيرهما، لكنه خسَّ بالورق، فلم ينتفع بها. قال: وكان في خُلُقِه شدَّةٌ وزعارَّة، وأثنى على فروسيَّتِه. انتهى.

فاستولدها عدَّة أولاد، ماتوا كلُّهم في حياة أمهم؛ منهم: أحمد. ذكره شيخي في استدعاء ولده محمد في سنة خمس وعشرين وثماني مائة، وعزيزة. ذكرها الشَّيخ رضوان في استدعاء مؤرَّخ بذي القعدة سنة ثلاثين. ولم يتأخر من أولادها إلا أبو المحاسن يوسف الآتي ذكره.

وكانت قد تعلَّمت الكتابة والقراءة، وماتت وهي حاملٌ بالطَّاعون سنة ثلاث وثلاثين وثماني مائة، فجُمِعَتْ لها شهادتان.

[ابنته فرحة]:

وأما فرحة[2]، فمولدها في رابع عشري رجب سنة أربع وثماني مائة، واستجيز لها ـ كما تقدَّم ـ في سنة سبع وثمان مائة، ثم بعد ذلك [في ذي القعدة سنة ثمان عشرة][3].

وتزوجها (بكراً)[4] شيخ الشيوخ محب الدين ابن الأشقر، الذي وَلِيَ نظر الجيش وكتابة السِّرِّ، وكان أحد أعيان الدِّيار المصرية، ومات في أوائل رجب سنة ثلاث وستين، وعمل بعضُ الأُدباء صدَاقها في أُرجوزة كما تقدَّم[5].

---

(١) في الأصول: «خلق»، والصواب ما أثبت، وهو كذلك في ترجمتها من الضوء اللامع ٥١/١٢.

(٢) مترجمة في الضوء اللامع ١١٥/١٢.

(٣) ما بين حاصرتين ساقط من (ب).

(٤) ساقطة من (أ).

(٥) ٥٠٥/١.

واستولدها ولداً مات صغيراً في حياة أُمِّه[1].

وكانت وفاتُها في ربيع الآخر سنة ثمان وعشرين، بعد أن حجَّت في العام قبلَهُ مع زوجها، ورجعت مُوعَكَةً حتَّى ماتت عن ثلاث وعشرين سنة وتسعة أشهر.

[ابنته غالية]:

وأما غالية[2]، فمولدها في ذي القعدة سنة سبع وثماني مائة، واستجيز لها جماعةٌ، وماتت هي وفاطمة الآتية بالطاعون في ربيع الأول سنة تسع عشرة وثمان مائة مع بعض عيال أبيها.

[ابنته رابعة]:

وأما رابعة[3]، فوُلِدَت في رجب سنة إحدى عشرة وثمان مائة.

وأسمعها والدُها على المراغي بمكة في سنة خمس عشرة، وأجاز لها جمعٌ مِنَ الشَّاميين والمصريين.

وتزوجها الشهابُ أحمد بن محمد بن مكنون، ودخل بها بكراً، وهي ابنةُ خمس عشرة سنة، فولدت منه بِنتاً أسماها غالية، ماتت في حياتهما بعد أن استدعىٰ لها الشَّيخ رضوان وغيره، ثم ماتَ زوجُها عنها في رمضان سنة تسع وعشرين[4]، فتزوجها المحبُّ ابن الأشقر المذكور أيضاً، واستمرت حتى ماتت عنده في سنة اثنتين وثلاثين وثمان مائة.

وعمل صداقها في أرجوزة الهيثميُّ وهي بكر، ثم الصَّلاح الأسيوطيُّ

---

(١) في (ط): «في حياة أبيه».

(٢) مترجمة في الضوء اللامع ٨٥/١٢.

(٣) مترجمة في الضوء اللامع ٣٤/١٢.

(٤) في (ب، ط): «تسع عشرة»، وهو خطأ. وقد أرخ المصنف وفاته سنة ٨٢٩ في ترجمته من الضوء اللامع ٢٠٨/٢. وكذا ذكره الحافظ ابن حجر في «إنباء الغمر» ١٠٩/٨ في وفيات هذه السنة.

الشَّريف وهي ثيّبٌ، كما قدَّمتُ ذٰلك في كلٍّ منهما مِنَ الباب الثَّالث[1].

[ابنته فاطمة]:

وأما فاطمة، فمولدها في ربيع الآخر سنة سبع عشرة، وماتت كما تقدَّم قريباً.

وحجَّت أمُّهُنَّ صُحبَةَ شيخنا في سنة خمس عشرة، وكذا حجَّت بعد ذٰلك في سنة أربع وثلاثين بمفردها، وجاورت ومعها سبطُها المشارُ إليه وهو صغيرٌ.

وحدَّثت بحضور شيخنا، قرأ عليها الفُضلاءُ، وكانت تحتفل بذٰلك، وتُكرم الجماعة. وقد خرَّجْتُ لها «أربعين حديثاً عن أربعين شيخاً»، قرأتُها عليها بحضورِهِ أيضاً. وكان أسلف لها بالإعلام بذٰلك على سبيل المُداعبة بقوله: قد صِرْتِ شيخةً، إلى غير ذٰلك ممّا يثقُلُ على النِّساء. وكانت كثيرةَ الإمداد لشيخنا العلاَّمة ابن خضر، وهو الذي كان يقرأ لها «البخاري» في رجب وشعبان مِن كلِّ سنةٍ بالمدرسة، وتحتفل يومَ الختم بأنواعٍ مِنَ الحلوىٰ والفاكهة وغير ذٰلك، ويهرعُ الكبارُ والصِّغار لحضور هٰذا اليوم، وهو قُبَيْل رمضان، بين يدي صاحب الترجمة. ولما مات ابن خضر قرأه لها سبطُها سنةً واحدةً في حياة جدِّه، وكان في أوائل ما لَبِسَ زيَّ الفُقَهاء، واستمر حتى الآن.

ولم تزل على جلالتها وتصوُّنها لم تُضْبط لها هفوةٌ ولا زلَّةٌ، بل مات كلُّ أولادها (بين يديها)[2] فصبرت واحتَسبَت، إلى أن ماتت بعد أن كانت مِنْ مدَّةٍ أوقفت ما بقيَ مِنْ أملاكها على سبطها وذرِّيَّته. وكذا كانت رغِبَتِ له عن رزقةٍ باسمها.

وكان شيخُنا رحمه الله كثيرَ التَّبجيل لها والتَّعظيم، لا سيما وهي

---

(١) ١/٥٠٠ و ٥٤٣.

(٢) مترجمة في الضوء اللامع ٨٨/١٢.

(٣) ما بين قوسين ساقط من (ب).

عظيمةُ الرَّغبة فيه، بحيث إنَّه لما تسرَّى وغضبت أمُّها الست سارة، كانت معه في ذٰلك أخفَّ حالاً مِنْ أمِّها، وبلغني أنَّها حينئذٍ عَتِبَتْهُ. فاعتذر بميله للأولاد الذكور، فدعت عليه أن لا يُرْزَقَ ولداً عالماً، فتألم لذٰلك، وخشي مِنْ دُعائها، وقال لها: أحرقتِ قلبي، أو كما قال. حكاه لي سبطُها، وقال: إنَّها كانت مجابةَ الدُّعاء، وإنَّها رأت ليلةَ القدر عياناً.

وكانت وفاتُها في يوم الثلاثاء ثاني عشري[1] في ربيع الأول سنة سبع[2] وستين وثماني مائة، وصُلِّيَ عليها بجامع المارداني، ودُفِنَتْ بتربة سلفها بالقرب من الجامع المذكور عند أولادها، ولم تخلف بالنِّسبة لما كان في حوزتها إلاَّ اليسير، لكونها كانت ذا عيال وحشمة، ولها مكارمُ، بحيث لا تزال تستدين وتنفقُ وتهَبُ وتعطي سِبْطَها العطاءَ الجزيل، وولد ابن أختها، وسبط أختها، ومَنْ يدخلُ إليها مِنَ العجائز وغيرهن ممن يلُذْنَ بالرُّؤساء ونحوهم. ولو عاشت قليلاً، لانكشف الحال، ولكن جمَّلَ الله ولطف، وما شك أنَّ ذٰلك حصل ببركةِ زوجها، بل مِنْ بركته أنَّها خُطِبَتْ غير مرَّة، وأرسل لها القاضي علم الدين البُلقيني على يد ولده أبي البَقاء رحمهم الله المهر، ذاكراً أنَّه إنما قصد صونَ بيته[3]، بجلالتها وما أشبه ذلك، فأقام عندَها المهرُ مدَّة، ويقال: إنَّها لم تكن تأبى ذٰلك، لكن عصمها الله تعالى ببركة زوجها.

ولي في ذلك شائبة عمل، فإنِّي عند سماع ذٰلك حصل عندي انزعاجٌ كبير مِنْ أجل ما كان بين الشَّيخين رحمهما الله تعالى، لا سيما وتزويجه بها يؤدي إلى سكناه بمنزله وغير ذلك، فاجتمعتُ به. وكان رحمه الله سليم الباطن، فخيَّلته بأمور أبديتُها له، فصرَّح لي بالرجوع، ولم أجد عنده هو كبير اكتراث بذٰلك، وإنَّما الوسائطُ هم الآفاتُ.

وبالجملة، فأراد الله تعالى بها خيراً، فإنها إن شاء الله تعالى تكونُ

---

(١) في (أ): «عشر».

(٢) «سبع» ساقطة من (أ).

(٣) في (أ): «بيتها».

زوجة شيخنا في الآخرة. ومن الاتفاقيات الغريبة أنَّ عمَّ والدها البدرَ حسن كان جواداً، كثير المكارم، وركبه بسببِ ذٰلك دَيْنٌ كثير، وهو لا يترك عادته في العطايا والجود لحُسْنِ ظنِّه بالله تعالى، فاتفق أنْ ماتت زوجتُه، وتركت مالاً جزيلاً، فورثها، ثم مات عقبها، فوفَّى ميراثه منها بديونه طبقاً بطبق، ولم يورث شيئاً.

ونحوه ما اتَّفق لابن أخيه كريم الدين عبدالكريم والد المترجمة لما مات، لم يخلف إلا ستمائة درهم، أخرج بها مع ثياب يسيرة وأثاث قليل. وقريب منه ما اتفق لهذه كما أسلفته.

[سبط ابن حجر]:

ولم تخلف ـ كما أسلفتُ ـ مِنْ بنيها أحداً. بلى خلفت سبطها الجمال أبا المحاسن يوسف بن شاهين الكركي[1]. ومولده ـ كما قرأتُه بخطِّ جدِّه صاحب الترجمة ـ في ليلة الإثنين عند صلاة العشاء ثامن ربيع الأول سنة ثمان وعشرين وثمان مائة، ونشأ عزيزاً مكرماً في حجر جدَّيه، واستُجيز له غير واحد من المسندين، منهم الكمال بن خير، وسمع على جدِّه كثيراً، بل أسمعه بقراءته[2] على تِجار البالسيَّة جزءاً، وسمع على غيره يسيراً.

وكان بزيِّ أبناء الجُند، حتى في المذهب، فأُشِيرَ عليه بالتزيِّي بالفقهاء وبالانتماء للشَّافعيَّة، وقُرِّر في نظر المنكوتمرية، لكونه أرشَدَ الموجودين مِنْ ذرِّيَّة الواقف، وقرأ حينئذٍ على البُرهان بن خضر والبدر بن القطان يسيراً، وقرأ على جدِّه ـ فيما شاهدناه ـ «التقريب» وغيره، وكتب عنه في «الأمالي»، وقابل عليه أشياءَ مِنْ تصانيفه. وقرأ عليه «البخاري» و«النُّخبة» داخل البيت.

---

(١) ترجمه المصنف في الضوء اللامع ٣١٣/١٠ ـ ٣١٧ وترجمته فيه شبيهة جداً بما ترجمه هنا، كما له تراجم في كل من الأعلام ٢٣٤/٨، بدائع الزهور ١٩٨/٣، البدر الطالع ٣٥٤/٢ ـ ٣٥٥، فهرس الفهارس ١١٣٩/٢ ـ ١١٤١، معجم المؤلفين ٣٠٤/١٣، المنجم في المعجم ص ٢٣٩، نظم العقيان ص ١٧٩، هدية العارفين ٥٦٣/٢.

(٢) «بقراءته» ساقطة من (ط).

وتردَّد معنا يسيراً إلى العز ابن الفرات، وقرىء عنده اليسير على غيره من المسندِينَ، وما أكثر مِنْ ذٰلك، بل كنتُ أقصد التجوُّه به عند ابنِ الفُرات، فلا يتَّفِقُ إلا في اليسير من الأوقات.

ولما مات جدُّه، اشتغل يسيراً، فأخذ الفرائضَ عَنِ الشَّيخ أبي[1] الجود المالكي، وحضر التَّقسيم عند العلاء القلقشندي، ويسيراً عندَ الجلال المحلِّي، وكذا حضر عند الشَّيخ أحمد الأُبَّدي[2] في العروض ونحوه، وتردَّد لغيرهم، وعاونَه الشَّمسُ المحلِّي الذي كان منتمِياً لصهره ابن البلقيني في نظم أشياء، وقرأ على الرَّشيدي جُملةً، وحصَّل.

وصاهر أكبر القائمين في مقاهرة جدِّه، وهو ولي الدين ابن تقي الدين البلقيني، فتزوج أخته، واستولدها عدَّة أولاد، تأخَّر منهم حينَ تبييضِ هذا الكتاب عزيزُ الدِّين محمد، الملقَّب حجر، الذي توفي بعد ذٰلك في الطاعون في ليلة الأحد خامس رمضان سنة ثلاث[3] وسبعين وثمان مائة عن دون ثمان سنين، ودُفِنَ بمدرسة خاله ولي الدين ابن تقي الدِّين البلقيني.

وأنكر العقلاءُ عليه التَّزويج المذكور، وقاسى منها مشقَّة، وآل الأمرُ إلى الفِراقَ، وهجوِها بقصيدةٍ بعد أن سافر إلى الشَّام وكيلاً عنها وعن أختها في ضبط تركة[4] أخيهما المذكور، ممَّا كان الأوْلَى به خلافُه، ولم يحصُل على طائلٍ.

وفي هذه السَّفرة أخذ عن مَنْ أدركه هُناك مِنْ بقايا المسندين، ومدحَ صهرَه المذكور لمَّا ولي الشَّامَ بقوله، كما رأيته بخطه:

---

(١) في (أ): «أبو»، خطأ.

(٢) بضم الهمزة وتشديد الموحدة، نسبة إلى بلدة بالأندلس، وهو شهاب الدين أحمد بن محمد بن محمد بن عبدالرحمن، توفي سنة ستين وثمانمائة، مترجم في الضوء اللامع ٢/١٨٠ ـ ١٨١.

(٣) في (ب، ط): «اثنتين وسبعين».

(٤) «تركة» ساقطة من (أ).

بَشِّرْ بِلادَ الشَّام مَعْ سُكَّانِها ... بِوَلِيِّ دِينٍ قَدْ وَلِيهَا حَاكِما
حَبْرٌ إمامٌ نَاسِكٌ مُتَعَفِّفٌ ... بِالعِزِّ لم يَبْرَحْ مُهاباً راحِما

وبقوله أيضاً:

لِتَهْنَ بِكَ العَلْيَاءُ يَا شَيْخَ عَصْرِهِ ... ويَا عَالِماً حازَ الكَمَالَ بَأَسْرِهِ
ويا مُفْرَداً في وَقْتِنا بولائه ... فَدُمْ في أَمَانٍ بالوَلاَءِ ونَصْرِهِ

وهجا خاله بما سيأتي في ترجمته.

وكان مِنْ مدَّة شرع في ترتيب «طبقات الحفاظ» [للذهبي على الحروف بإشارة جده، بعد أن أعطاه نصف «ترتيبها» له، فكمل عليه، ثم التمس من القاضي علم الدين التقريض][1] عليها فرآه نقل عن جدِّه أشياء فأفْحَشَ في إنكارها بهامش النُّسخة في غير ما موضعٍ ممَّا لا أحبُّ ذكره، لكونه انتقصَ فيه شيخَنا، ثم استرضى حتَّى كتب.

وكذا كتب له على الكتاب اسمه صاحبنا القطب الخيضري بعد أن وصف هو القطب في الخُطْبة بشيخه العلاَّمة حافظ الوقت، وكذا وصف تقيُّ الدين القلقشندي بشيخه، وما علمتُه قرأ على واحدٍ منهُما، ورأيتُ بخطِّه أنَّه مدح أولهما بقوله:

لتهنَ بِكَ العلياءُ يا قُطْبَ عَصْرِهِ ... ويا حافِظاً حازَ الفَخَارَ بأَسْرِهِ
ويا مُفْرَداً في وَقْتِنَا بِذَكائِه ... فَدُمْ في أمانٍ بالهَنَاءِ ونَصْرِهِ

واختصر «قُضاة مصر» لجدِّه، فأساء الصَّنيع، خصوصاً حيثُ وصف الأصل بقوله: وجدتُ فيه بعضَ إعوازٍ في مواضع، منها إسهابُه في بعض التراجم، وإجحافُه في بعضها، ومنها: إخلاله بتحرير مَنْ تكرَّرت ولايتُه، والاقتصار على ذكر بعضها، ومنها: إغفالُه ذكرَ مَنْ أخذَ المترجم عنه، وبمن صُرِفَ في الغالب، ومنها: إهمالُه بعضَ تراجم أسقطَها أصلاً ورأساً، ولعلَّها

(١) ما بين حاصرتين ساقط من (أ).

كانت في زجاجات(!) فلم يظفَر بها المبيِّضُ. إلى أن قال: فأُناقِشُ المؤلِّفَ في مواضع قد قلَّد فيها غيره، وهي منكرَةٌ، وقال في موضع آخر من الكتاب: وإذا تأمل المنصفُ يتحقق أنَّ الصواب ما حرَّرناه، وأنَّ شيخنا رحمه الله لم يحرِّر هذا الكتاب، فهذا الموضع مِنَ المواضع التي قلَّد فيها بعض مَنْ صنَّف في القُضاة، ولم يحرِّرْها. وفوقَ كلِّ ذي علمٍ عليم. انتهى.

ولذلك كتب قاضي القُضاة المحبُّ الحنفي الذي تزوَّج السِّبْطُ ابنتَه بعدُ في سنة تسع وسبعين، إذ وقف على ذلك ما نصُّه: كأنَّه ينسُبُ جدَّه إلى القُصُور في البلاغة، وإلى قلَّة المعرفة بالأدب، وأنَّه أبصر منه بذلك، ثمَّ بيَّن أنَّ الصَّواب جُزازات لا زجاجات.

قلت: والإنكار عليه في ذٰلك أن لو فُرِضَ صحَّةُ قوله، فكيف وتلك كلمات رام أن يعلُوَ فيها فهبَط.

ومن القبائح التي رأيتُها في هٰذا المختصر: أنَّه عقد فصلاً في مَنْ حصلت له محنةٌ بعد دخوله في المنصب بضربٍ أو سجن أو إتلافِ روح، وكأنَّه جعل لمَنْ تأخَّر مستنداً، وكذا عقد لمن وَلِيَ القضاءَ مِنَ الموالي ترجمةً، وذكر لبعض أصحابه أنه قصد بذٰلك أن يكون له بهم أسوة إذا ولِيَ. وبالله يا أخي، اعذُرني في ما أشرتُ إليه، فحقُّ شيخنا مقدَّم.

وعمل «جزءاً» جرَّد فيه أسماء الشُّيوخ الذين أجازوا له ونحوهم في كراريس، لا تراجم فيها، وقع له فيه تحريفُ أسماء، لكون اعتماده فيها على النَّقل مِنَ الاستدعاءات، ومواضع سقط عليه مِنَ الأنساب، فلزم تكريرُ الواحد في موضعين فأكثر وهو لا يشعُر، ورُبما يكون تكرارُها في موضعٍ واحدٍ وأماكن يضبطُها بالحروف أو بالقلم وهي خطأ، ومواضع لا يُحْسِنُ قراءتها، فيخليها مِنَ النَّقْطِ، فضلاً عَنِ الضَّبط، وأماكن يحذف ما يكونُ شُهرة الشَّخص به، بحيث يمرُّ عليه مَنْ يعرفُه فيظنُّه آخر لعدم اشتهاره بذٰلك، بل ربما يكون في ذٰلك الوصفِ مع ذٰلك للمذكور تنقيصاً، إلى غير ذٰلك ممَّا الحامل على التَّعرُّض له ما سبق. ومن كان هذا شأنه في شيوخه، لا يليق به ما تقدم.

ودرَّس للمحدثين بالقُبَّة البَيبَرسية برغبةِ الشَّيخ قاسم الحنفي لهُ عنها، وعمل حينئذٍ إجلاساً بحضرة القاضي علم الدين البُلقيني وصهره ولي الدين وغيرهما، ولم أكن إذ ذاك بمصر، وشرع في شرح «بلوغ المرام» وكأنَّه اعتمد على القطعة التي عملها جدُّه من «شرح المحرر» لابن عبدالهادي، وكذا استنزل أولادَ الشَّيخ بدرالدين ابن الأمانة عَنْ تدريس الحديث بالقبَّة المنْصورية بنحو ثلاثمائة دينار، وافتتح الدَّرس بالكلام على حديث قبض العلم، وذٰلك في سنة أربع وسبعين، وعند انتهاء غالبِ المعتبرين من شُيوخ الرواية، قام فطلب ودار على المتأخِّرين.

وأكثرَ مِنْ كتابة الأجزاء وغيرها، وليس خطه في ذلك بالطائل، لا سنداً ولا متناً، وفارقتُه وهو يكتبُ في «الخادم» للزركشي، ثم بعد أن كتب منه نحوَ الرُّبع باعَهُ للشَّيخ شمس الدين بن قاسم، واستنسخه[1] في باقيه.

وحجَّ في حياة جدَّيْهِ سنةَ ثمان وأربعين وثمان مائة، وصُحبَتُه الطَّواشي سُنبل فتى جدَّتِه وغيره، وكتب معه جدُّه إلى القاضي أبي اليمن ما نصُّه: إنَّ مُحضرها الولد العزيز يوسف سبط العبد تهيَّأ لقضاء فريضة الحج، وما كان العبدُ يتمنَّى إلاَّ أن يكون صُحبتَه، ولكن الأمُورَ تجري بقدرٍ، وليس للعبدِ حيلَةٌ في دفع المقدور، ولا غِنَى له عن ملاحظتكم ومؤانستكم، فإنَّه صغيرُ السِّنِّ، وما سافر قطُّ ولا تغرَّب عَنْ أهله ليلةً واحدةً، ولكن أوقعَ الله تعالى في قلبه هُجران أرضه والميلَ الكلِّيَّ إلى قضاءِ فرضِهِ، فنسأل الله تعالى أنْ يبلغَه منيَتَه، ويعيدَه إلى وطنِه بعد قضاء وطره، إنَّه سميعٌ مجيب.

ورجع فأخبر جده بإكرام المذكور له، فراسله صُحْبَةَ ناصرِالدِّين ابن المهندس موقع الحكم في جمادى الآخرة سنة تسع وأربعين وثمان مائة، وصدرُ الرِّسالة: بوصف المكتوب إليه بالإمام الفاضل الكامل قاضي المسلمين، خطيب الخُطباء، أبي اليمن. إلى أن قال: وأن محضرها الولد ناصرالدين موقع الحكم العزيز، عزم على المجاورة بالحرم الشَّريف، وتوجَّه

---

(١) في (أ): «فاستحسنه»، تحريف.

وصُحبتَه أهلُه وعيالُه، ولا غنى به في مُدَّة إقامته عَنْ ملاحظتكم ومساعدتكم، والمسؤول شمولُه بنظركم العزيز، وعنايتكم به، وهٰذا بحسب الإدلال، وقد وقف العبدُ على مطالعتكم إلى الجناب العالي الظهيري ابن الطَّرابلسي، وفيه السَّلام على العبد، فالله المسؤول أن يسلم عليكم ويسلمكم، والعبدُ يسلِّمُ عليكم ثانياً، وعلى الولد العزيز نورُالدين.

وقد وصل الولد يوسف والطَّواشي سُنبل، وكلٌّ مِنهُما رطبُ اللِّسانِ بالدُّعاء والثَّناء والاغتباط بالوالد والولد، وهٰذا هو المعهودُ، ووصل ما تفضَّل به الولدُ العزيز مِنَ الهدية الطَّيبة، فالله تعالى يُجازيكم خيرَ الجزاء، ويعينكم على ما أنتم فيه مِنْ جميع الأشياء، ويُمدكم بمعونته، ويؤيدكم بعنايته، ويجمعُ الشَّمل بكم في الحرم الشَّريف قريباً إن شاء الله تعالى.

ثم حج في حياة جدَّته سنة إحدى وستين وثماني مائة.

وكانت للمدرسة المنكوتمرية جهةٌ بالشَّام، فلم يزل به الجماليُّ ناظر الخاص بواسطة السُّوء عنده، حتَّى عوَّضَه عنها أقطاعاً كان باسمه اشتراه منه بثمن، ثم عمله رزقةً بدلاً عَنِ الجِهَة المذكورة، ولذلك تلاشى حالُ المدرسة، لا سيما وهو ليِّنُ الجانب، ولا يستشير أحبابه، وثوقاً بنفسه.

وكَثُرَ الخللُ في تصرُّفاته لذلك، حتى كان مِنْ جملة أفعاله استبدالُه سكنَ جدِّه، ثم اشتراه لنفسه وهدمه، وبالغ في أمور كان الوقت في غُنْيَة عنها، وتحمل لذلك دُيوناً كثيرةً، وباع نفائِس كُتُبِه، واستبدل غيره مِنَ الأماكن، ومع ذلك فلم يتهيَّأ له إنهاء موضعٍ صالحٍ للسُّكنى.

وبالجملة، فهو إنسانٌ خيِّرٌ ساكنٌ، حَسَنُ الفَهْمِ، متعبِّدٌ بالصَّوم، منجمع عَنِ النَّاس، والله تعالى يُعينه ويسدِّدُه.

[سُرِّيَّتُه خاص ترك]:

إذا علم هذا فنقول: إنَّ صاحب الترجمة لمَّا رأى كثرةَ ما تلِدُه أمُّ أولاده مِنَ الإناث، وأحبَّ أن يكون له ولدٌ ذكرٌ، ولم يمكنه التَّزويج مراعاةً لخاطرها، اختار التَّسَرِّي، وكانت لزوجته جاريةٌ جميلةٌ، يقال: إنَّها ططرية، اسمُها خاص

تُرك، فوقع في خاطره الميلُ إليها، فاقتضى رأيُه الشَّريفُ أن أظهر تغيُّظاً منها بسببِ تقصيرها في بعض الخدمة، وحلف أنَّها لا تقيمُ بمنزله، فبادرت زوجتُه لبيعها بعد أن أمرها أن تأمرَ القاصد بعدم التوقُّف في بيعها بأيِّ ثمنٍ كان. قال: وكلُّ ما رُمْتِيه مِنَ الزِّيادة على ذٰلك، أقومُ لك به، ففعلَتْ.

وأرسل هو الشيخَ شمس الدِّين ابن الضياء الحنبلي، فاشتراها له بطريقِ الوَكالة، وأقامت ببعضِ الأماكن حتى استبرأها، ثم وطئها، فحملت بولده القاضي بدرالدين أبي المعالي محمد.

وكان مولده في ثامن عشر صفر سنة خمس عشرة وثمانمائة، واستدعى صاحبُ التَّرجمة بالطَّلبة ونحوهِم يومَ السَّابع إلى منزلِ أمِّ أولاده، وعمل لهم شواءً، فكانت العقيقةُ عندها وهي لا تشعر. وأقام عند أمِّه وشيخُنا يتردَّدُ إليهما حتَّى بلغ الخبرُ أمَّ أولاده قبل انفصالِ الولد عَنِ الرَّضاع، فركبت هي أو أمها[1] مِنْ فورها إلى المكان الذي كانا به، وأحضرتهما معها إلى منزلها، فتركتهما ببعض المعازل إلى أن حضر شيخُنا مِنَ الركوب وليس عنده شعورٌ بما وقع، فاستخبرته عَنْ ذٰلك، فما اعترف ولا أنكر، بل ورَّى بما يُفْهَمُ منه الإنكارُ، فقامت وأخرجتِ الولدَ وأمَّه، فسُقِطَ في يده، وبادر فاختطفَ الولدَ، وذهب به إلى بعضِ مَنْ يثقُ به مِنَ النِّسْوَةِ بمصر، ثم توجهت إليه أمُّه بعد ذٰلك. ولم تزل به إلى أن زوَّجها بالزَّين عبدالصمد ابن صاحبِه الشَّيخ شمس الدين الزركشي، أحد من سمعنا عليه الحديثَ، واستمرت معه حتى ماتت[2].

[ابنه محمد]:

وأما الولد[3]، فأشغله والدُه بحفظِ القرآن، فختمه.

---

(١) في (ب): «هي وأمها».

(٢) في (ب): «حتى مات».

(٣) مترجم في الضوء اللامع ٧/٢٠.

وصلى بالنَّاس على جاري العادة في رمضان سنة ست وعشرين وثماني مائة بالخانقاه الرُّكنيَّة البَيْبَرْسية، وحضر الأعيان، وكتب قاضي القضاة العلاءُ ابن المغلي لصاحب التَّرجمة حينئذٍ ما سلف في الباب الخامس في فصل المطارحات. وأسمعه الحديثَ على الواسطي والفخر الدَّنديلي وجماعة.

وأجاز له باستدعاءِ والدَه في سنة مولده فما بعدها خلقٌ مِنْ كبار المسندين، ذكر الكثيرَ منهم والدُه في «معجم شيوخه»، ومنهم عائشةُ ابنَة محمد بن عبدالهادي، وأبو بكر بن الحسين المراغي.

وأثبت الحافظُ أبو النَّعيم اسمَه قديماً فيمن يستجاز. وترجمه، فقال: سمع بقراءتي على عُثمان الدَّنديلي «جزء ابن حذلم»، وكتب عن والده باستملائي كثيراً، وأجاز له خلقٌ لا يُحصَوْنَ، منهم عائشةُ ابنةُ ابن عبدالهادي. انتهى.

وكنتُ أسمع أنَّ والده صنَّف «بلوغ المرام» لأجله، ولا أستبعد ذٰلك، فإنَّه كما تقدم ـ فرغ مِنْ تأليفه سنة ثمان وعشرين، لكنه ما تيسَّر له حفظه، بلى، حفظ يسيراً منه ومِنْ غيره، وكتب عَنْ والده كثيراً مِنْ مجالس الإملاء كما قرأت [ذلك بخط المستملي الذي أسلفت حكايته، ورأيت كثيراً منها][1] بخط البدر المذكور. ولازم مجلسَه، حتَّى سمع عليه شيئاً كثيراً مِنَ الكتب الكبار في رمضان وغيره.

واشتغل بالقيام بأمر القضاة والأوقاف ونحوها حتى فاق، وصارت له خبرةٌ تامَّة بالمباشرة والحساب، واشتدت محبَّة والده له، بحيث لا يصبده عنه صادٌّ، ولا يردُّه عنه رادٌّ، ولله درُّ القائل ممَّن توفي له عدَّة أولاد، ثم وُلِدَ له بعدَ تعطُّشٍ واشتياق:

أُحِبُّه حُبَّ الشَّحيحِ مالَه ... قد كان ذاقَ الفَقْرَ ثُمَّ نَالَه

انتهى.

---

(١) ما بين حاصرتين ساقط من (أ).

وولي في حياته عدَّة وظائف، أجلُّها مشيخةُ الخانقاه البَيْبَرسية، وتدريس الحديث بالحسينية[1]، ناب عنه فيهما والدُه. والإمامةُ بجامع طولون، وغير ذلك.

وكان حَسَنَ الشّكالة، متكرِّماً على عياله، قل أن يكون في معناه من نظرائِه مثله.

ولما مات والده، ما التفت لشيءٍ مِنْ وظائفه، حتى ولا ما يصلُح أن يكونَ باسمه، كالخَطَابَة بجامع عمرو، والخَزْن لكتب المحمودية، والمرتب بالجوالي، ونحو ذلك. نعم، جُهِّزَتْ له مربعة ببعض جوالي أبيه، فأباها.

وأمضى أكثرَ ما أوصى به والدُه مِنَ الصَّدقات ونحوها، وهو قدر كبير، بحيث قضى النَّاسُ العجبَ مِنْ ذٰلك، لكنه ـ عفا الله عنه ـ ضيَّع ما كان الأولى به الحرص على بقائِه مِنْ تصانيفِ أبيه وغيرها ممَّا كتبه بخطِّه، ونقل أكثر ذلك لناظر الخاصِّ الجمال يوسف ابن كاتب جكم كما تقدَّم قريباً. وتفرقت شذراً مذراً مِنْ غير مُقابل في ذلك، بحيث لم يحصُل الانتفاع ممَّا لم يُبَيَّض في حياته إلا بما أعملت[2] الفكر في تحصيله منه بخطِّي، وهو شيء كثيرٌ، فللَّه الحمدُ.

وقد رأيت بخطِّ ابن أُخته هجواً فيه، وأستغفرُ الله مِنْ حكايته:

قولُوا لخالي الَّذي قَدْ كُنْتُ راجيهِ ... عِنْدَ الشَّدائِدِ في تَقْديمِ إخلالي
ضيَّعت كُتباً بلا حقٍّ خَسِرْتَ بها ... دُنْيا وأُخْرَى فَقَدْ آذَيْتَ يَا خَالي

وأيضاً:

قولُوا لخالٍ قد غَدا خَالِيا ... مِنْ عَقْلِهِ والعِلْمِ والمَالِ
أخْلَيْتَ دَار الخَيْرِ مِنْ كُتبِها ... وَيْحَكَ مُذْ أذْعُوكَ يَا خالِ

---

(١) في (ب): «بالحسنية».

(٢) في (أ، ط): «أعلمت»، تحريف.

وأيضاً:

قولوا لذا الخَالِ الَّذي قَدْ غَدَا مُسْتَنْقِصاً قَدْرِي بِإذْلالِ
الله حَسْبِي وكَفَى عالِماً بالنَّقْصِ والإكْمَالِ يَا خَالي

ولله درُّ القائل:

وإنَّ ابْنَ أُخْتِ القوم مُضْغَى إناؤه إذا لم يُزَاحِمْ خَالَه بأبٍ جَلْدِ

وحرصت كل الحرص أن يُقبل بعدَ موتِ أبيه على المُطالعة والاشتغال على بعض جماعةِ أبيه، كابن حسَّان وغيره، وكاد يوافق على ذلك، لكنَّه ما تمَّ.

وسمعت مَنْ يذكُر عَنْ شيخنا صاحبِ التَّرجمة أنَّه كان يقول: قلَّ أن يجتمع الحظُّ لامرىءٍ في نسله وتصانيفه معاً. انتهى.

وقد حدَّث باليسير، وخرَّجت له «جزءاً»، وكتبَ على الاستدعاءات، وقابلَ معي بعضاً مِنْ تصانيف والده، وعُرِضَتْ عليه حِسبَةُ القاهرة ومصر، فما وافق، وكانت الخِيرَةُ في ذٰلك. وكذا التمس منه بذل شيءٍ في عود وظيفة مشيخة الخانقاه، فتوقف إلا أن أُضيف النَّظرُ لها. ولم تكن همَّتُه منصرفة لشيءٍ مِنْ ذٰلك.

وقد حجَّ في حياة أبيه سنة ثلاث وثلاثين وثماني مائة، ثم بعده غيرَ مرَّةٍ بتجمُّلٍ زائدٍ، ومصرفٍ كبير، وجاور، وأنشأ عدَّة أماكن في حياة أبيه وبعده، أنفد غالبها في النَّفقة مع ما تخلَّف مِنْ تركة والده عن آخره، بحيث يزيدُ ما صرفَه مِنْ بعد موته وإلى أن مات على ثلاثين ألف دينار، وكاد الحالُ أن يضيق، لكن جمَّل الله تعالى ببركة والده.

وابتدأ به الوعك، وقاسى شدائد أقام فيها أزيدَ مِنْ مائة يوم، وتفتَّحت في أعصابه عدَّةُ أماكن، وتخلَّى، وانتحل، وصار إلى هيئة أرجو أن يكفِّرَ عنه بسببها. كل ذلك وهو صابرٌ حامدٌ شاكر، إلى أن ماتَ مبطُوناً شهيداً يوم الأربعاء سادس عشر جمادى الثَّاني سنة تسع وستين وثماني مائة، ودُفِنَ

مِنْ يومه بتُربة جَوْشَن بعد أن شهده جمعٌ جَمٌّ، منهمُ الشَّافعي والحنفي، ومشى معه إلى محل دفنه في طائفة كثيرة.

وخلَّف ولداً ذا أولادٍ وزوجةٍ، وقُوِّمَتْ أملاكُه بنحوِ ثمانية آلاف دينار.

واستبدَّ بالتكلُّم في تركته ابنُ أخته الجمال يوسف، فسبحان الفعَّال لما يريد. وأخبرني ابنُ أخته المذكور أنَّه رأى الزَّين شعبان ابن ابن[1] عم شيخنا في المنَام بعد موت البدر، فسأله عنه: هل جاء إليهم، فقال: وصل إلينا بعد موته بستَّة أيام، صالحَ عنه أبوه بخمسةٍ وستين، فاستبشرتُ لهُ بذٰلك.

[أبناء محمد ابن الحافظ ابن حجر]:

وأثكل في حياته عدَّة أولاد، فمِمَّن علمتُه:

حوراء[2]:

كان مولدُها في ليلة الثُّلاثاء قبل أذان الفجر بساعة ثامن عشر ذي القعدة الحرام سنة ثلاث وثلاثين وثماني مائة، وكان ذٰلك بعد وفاءِ النِّيل، فحصلت البُشرى بذٰلك للمسلمين، وكان أبُوها يومئذٍ في طريق مكَّةَ حاجاً، ولعلَّه كان حينئذٍ بالحوراء أو بقُربها، فسُمِّيت بذٰلك.

وانتقلت أمُّها ـ وهي روميَّة، تُسمَّى بُلبل ـ في أول محرم سنة خمس وثلاثين، وقد أكملت ابنتُها هٰذه سنةً واحدة وشهراً وثلثي الشهر، فامتنعت مِنْ قَبُول ثدي غيرِ أُمِّها، ففُطِمَتْ، وأعانها الله تعالى ببركة جدِّها، فعاشت، ثمَّ ماتت بالطَّاعون في سادس ذي القعدة سنة إحدى وأربعين وثماني مائة، فلم تكمل الثمان.

---

(١) «ابن» ساقطة من (أ)، وقد قال عنه المصنف في ترجمته من الضوء اللامع ٣٠٤/٣: وهو حفيد عم شيخنا، يجتمع معه في محمد الثالث.

(٢) مترجمة في الضوء اللامع ٢٣/١٢.

جويرية[1]:

كتبها جدُّها في استدعاء لوالدها مؤرَّخ برجب سنة خمس وثلاثين، وباستدعاءٍ بعد ذٰلك.

ولطيفة[2]:

وكان مولدُها في أول العشر الثَّالث مِنْ ذي القعدة سنة ست وثلاثين وثماني مائة، واستجاز لها جدُّها وغيرُه، وعاشت حتَّى تزوجت بيوسف ابن الشَّرفي يحيى ابن بنت المكي. وماتت شهيدةً في ليلة الاثنين ثامن رجب سنة أربع وخمسين وثمان مائة بعد أن حجَّت مع أبويها وزوجِها، ودُفِنَتْ بتُربة مقابلةٍ للصُّوفية البَيبرسية، ثم نُقِلَتْ بعدَ مُدَّةٍ إلى جَوْشَن.

وحسين[3]:

وكان مولده في أوائل شوال سنة إحدى وأربعين، ومات في شعبان سنة اثنتين وأربعين عَنْ دُونِ سنة. أرَّخه جده في «تاريخه».

[علي]:

ولم يخلف ـ كما قدمتُه ـ غيرَ ولد واحدٍ، اسمُه علي[4]، كان مولدُه في ليلة السبت ثاني ذي القعدة سنة تسع وثلاثين، كما أرَّخه جده في «تاريخه»[5] ودعا لَهُ، فقال: أنشأه الله صالحاً في دينه ودُنياه.

وقد نشأ في كنف أبويه في غايةٍ مِنَ الرَّفاهية، وأجاز له غيرُ واحدٍ،

---

(١) مترجمة في الضوء اللامع ١٨/١٢.

(٢) مترجمة في الضوء اللامع ١٢٢/١٢.

(٣) كذا في الأصول، وقد ترجمه جده الحافظ ابن حجر في إنباء الغمر ٨٠/٩، والمصنف في الضوء اللامع ١٢١/٣، فسمياه حَسَناً.

(٤) مترجم في الضوء اللامع ٢٨٣/٥.

(٥) إنباء الغمر ٣٩٠/٨.

وأُحْضِرَ مجلسَ جدِّه، وتردَّد له الفقيه جعفر السَّنهوري القارىء للتَّعليم وغيره، وحجَّ مع أبويه، وجاور، ومات كلٌّ مِنْ أبويه في حياته، فصبر ورُزِق عدَّة أولاد، تأخَّر حين تبييض هٰذه التَّرجمة منهم محمد، [وهو ذكي فَطِنٌ، أرجو فيه الخير][1]، وابنتين غيره.

[ومن زوجاته]:

ومن زوجات صاحب الترجمة أيضاً...[2] زوجة الزين أبي بكر....[3] الأمشاطي. تزوجها بعد موته، وكان أسند وصيته إليه.

وعتيقة العلاَّمة نظام الدِّين يحيى ابن العلاَّمة سيف الدِّين الصِّيرامي، شيخ الظَّاهرية، تزوَّجها في مجاورة أمِّ أولاده في سنة أربع وثلاثين، وكان سيِّدُها قد مات في سنة ثلاث وثلاثين وثمانمائة، ورُزِقَ منها شيخُنا ابنَةً في يوم الثلاثاء خامس رجب سنة خمس وثلاثين، وهي بقاعة المشيخة بالبيبرسية، سماها آمنة[4]. وكتبها في بعض استدعاءات ولده محمد، ثم ماتت في ثالث عشر شوال سنة ست وثلاثين وبموتها طُلِّقَتْ أمُّها، فإنَّه كان علَّق طلاقها عند سفره إلى آمد على موتها، وتزوَّجها بعده الشَّريف الجَرَواني[5].

[زوجته ليلى الحلبية]:

ومنهن ليلى ابنة محمود بن طوغان الحلبية[6]، تزوجها حيث سافر مع

---

(١) ما بين حاصرتين زيادة من (ب)، وكانت موجودة في (ح)، ثم شطبت.

(٢) بياض في الأصول.

(٣) بياض في الأصول.

(٤) مترجمة في الضوء اللامع ٣/١٢.

(٥) هو جلال الدين محمد بن أحمد بن عبدالله، المتوفى سنة ٨٨٢. مترجم في الضوء اللامع ٧٤/٧ ـ ٧٥.

(٦) مترجمة في الضوء اللامع ١٢٣/١٢.

الأشرف إلى آمد في سنة ست وثلاثين، وكانت ذات ولدَيْنِ بالغَيْنِ، واستمرت معه إلى أن سافر مِنْ حلب، ففارقها، لكنَّه لم يُعلمها بالطَّلاق، وإنَّما أسَرَّه لبعضِ خواصِّه. والتمس منه أن لا يُعلمها بذلك إلاَّ بعد مُضيِّ المدَّة التي كان عجَّل لها النَّفقة عنها عندَ سفره، حيث تحضُرُ للمطالبة بالنَّفقة المستقبلة، فيعلمها حينئذٍ بذلك.

ثم راسل[1] بعض أحبابه الحلبيين في تجهيزها له إن اختارت، ويعلمه بأن يعلمها بأنَّ الحامِل له على الطَّلاق الرِّفقُ بها لئلا تختار الإقامة بوطنها، أو يحصل لها نصيبُها، فلا تتضرَّر بشبكته. وكان في الكتاب المذكور ـ كما قرأتُ بخطِّه ـ وصفُه لها بأنَّها نعمَ المرأةُ عقلاً وحُسْنَ خَلْقٍ وخُلُقٍ، ويأمُرُه بوعدها بكل جميل، وأنها إن قدِمَتْ لا يكونُ عنده أعزُّ منها، وينزلها أحسنَ المنازل، ويعوِّضها عن كلِّ شيءٍ مِنَ الفرش والأمتعة، ولا يُحْوِجُها لشيءٍ. وسترى ذلك إن فعلت. قال: فإنَّ رغبةَ العبد فيها قويَّةٌ ظاهراً وباطناً.

فامتثلت إشارته، وتجهَّزت حتى قدِمَتْ عليه مصر، فاستعادها بعد أن أنزلها بقاعةِ المشيخة بالبيبرسية، واحتفل بشأنها، وكادت أمُّ أولاده تُقَدُّ غُبناً.

واستمرت في عصمته حتى سافرت إلى حلب، وصُحبتُها الشَّيخ شمس الدين بن قمر، لزيارة أهلها في نصف شوال سنة إحدى وأربعين وثمان مائة. ففارقها حينئذٍ، وقال: إنَّها أكملت في عصمته خمس سنين سواء، ثم عادت في رجب مِنَ السَّنة التي تليها، فأعادها إلى عصمته، واستمرت معه حتَّى مات. وورثته.

ولم يكن ـ مع شدة ميلِهِ إليها ـ يبيتُ عندها، إنَّما كان يجيئُها في يومي الثلاثاء والجمعة من كل أسبوع غالباً، كما سلف في الباب السَّابع، ولم يُرْزَق منها أولاداً، وهو القائل في حقِّها ما أسلفتُه مِنَ النَّظم في الباب الثاني[2]، صان الله حِجابَها.

---

(١) في (أ): «أرسل».

(٢) ١/١٩٨

وقد تأخَّرت بعده دهراً، وتزوجت عدَّة أزواج، ثم ماتت في منتصف شهر رجب سنة إحدى وثمانين وثمانمائة بعد زوجِ ابنتها البدريِّ ابن القطان، رحمهما الله وإيانا.

[خدمُه]:

وأمَّا خدمُه، فأنجبُ مَنْ علمتُه منهُم: فاتن الطَّواشي الحبشي[1]. قرأ وكتب. وباقيهم فيه[2] كثرة، ومنهُم: ريحان وموفَّق الحبشيان، ولم يتخلَّف بعده مِنْ خدمه كثيرُ أحدٍ، والله المستعان.

---

(١) مترجم في الضوء اللامع ٦/١٦١.

(٢) «فيه» ساقطة من (أ).

obeikandl.com